

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جامعة الخليل
كلية الدراسات العليا
برنامج اللغة العربية

السّخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول (648-784 هـ)

إعداد:
نيفين محمد شاكر عمرو

إشراف :
د. علي عمرو

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلب نيل درجة الماجستير في اللغة العربية
العام الجامعي 2008-2009

نوقشت هذه الرسالة يوم الأربعاء، بتاريخ : 2009/6/3م.
الموافق 10/ جمادى الآخرة / 1430هـ، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع



مشرفا ورئيسا

1- د. علي عمرو



ممتحنا خارجيا

2- د. مشهور حبازي



ممتحنا داخليا

3- د. حسام التميمي

١٦/١١/٢٠٠٩

الإهداء :

إلى من ينبض قلبهما بالإحسان

إلى من رباني فصيرت بأخلاقك كالعاس

إلى أعض الناس ...

أمي وأبي ...

إلى من أثار لي كل طريق

وكان لي خير صديق

زوجي العزيز

وإلى صغيرتي .. زينب وسارة

أهدي هذا العمل المتواضع شكراً وتقديراً

نيفين عمرو

شكر وتقدير :

أُتقدم بجزيل الشكر و كامل العرفان إلى

المشرف علي هذه الرسالة الدكتوركتور علي عمرو ،

الذي لم يبخل علي بتوجيهاته ونصائمه القيمة .

لما أشكر كل من ساعدني علي إتمام عملي .

فهرس المحتويات :

الصفحة	الموضوع
ز	المقدمة
1	التمهيد : السخرية وعلاقتها
2	أ- مفهوم السخرية
2	ب- علاقة السخرية بالمجتمع
3	ج- أنواع السخرية
3	1- السخرية الاجتماعية
4	2- السخرية السياسية
4	3- السخرية الدينية
4	د- أساليب السخرية
5	هـ- أسباب اللجوء إلى السخرية
7	الفصل الأول السخرية من ملامح الإنسان الخارجية في الشعر
8	أولاً : السخرية من الهيئة العامة للجسم
10	ثانياً : السخرية من أعضاء الجسم
14	ثالثاً : السخرية من اللحية
18	الفصل الثاني السخرية من الجوانب المعنوية في ذات الإنسان وحياته في الشعر
19	أولاً : السخرية من ضيق الحال
31	ثانياً : السخرية من البخل
39	ثالثاً : السخرية من الحمق والتقل
42	رابعاً : السخرية من الأنساب
44	خامساً : السخرية من التناقض في حياة الشخص
46	سادساً : السخرية من إخلاف الوعد
49	سابعاً : السخرية من مفاسد اجتماعية وأخلاقية أخرى

54	الفصل الثالث السخرية من فئات اجتماعية مختلفة في الشعر
55	أولاً : السخرية من المرأة .
61	ثانياً : السخرية من المغنيين والمغنيات .
64	ثالثاً : السخرية من الخدم والجواري .
65	رابعاً : السخرية من الأدب والأدباء .
71	خامساً : السخرية من أهل العلم والفضائل .
72	سادساً : السخرية من الحرف والحرفيين .
80	سابعاً : السخرية من مواقف مختلفة .
87	الفصل الرابع السخرية السياسية في الشعر
89	أولاً : السخرية من الملوك والأمراء
101	ثانياً : السخرية من موظفي الدولة
108	الفصل الخامس السخرية الدينية في الشعر
109	أولاً : السخرية من المتصوفة
114	ثانياً : السخرية من التطاول على الشريعة
116	ثالثاً : السخرية من أهل الذمة
120	الفصل السادس الدراسة الفنية
121	أولاً : اللغة
128	ثانياً : الأسلوب
132	(1) أسلوب الأمر
133	(2) أسلوب النفي
135	(3) أسلوب الشرط
135	(4) أسلوب الطباق
137	(5) أسلوب المراجعة أو الحوار

138	6) أسلوب السرد القصصي
139	7) أسلوب النداء
140	فنون بديعية أخرى
140	أ) التورية
142	ب) التوجيه
145	ج) الاقتباس
147	د) التضمين
148	ثالثاً : الصورة الشعرية
149	الصورة المفردة والجزئية
150	الصور المركبة
151	1) الصورة البصرية
153	2) الصورة السمعية
154	3) الصورة الشمية
155	4) الصورة الحركية
157	5) الصورة الإيحائية
159	الخاتمة
161	التراجم
169	قائمة المصادر والمراجع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الذي سخّر لنا سُبُل الهداية والعلم ، أحمدُه حمداً كثيراً كما ينبغي لجلالِ وجهه وعظيم سلطانه ، وأصلي وأسلم على حبيبه المصطفى محمد خير البرية أجمعين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

امتألت المكتبات بنتاج العلماء والأدباء في العصر المملوكي الأول ، فكان صفحةً من صفحات تاريخنا العربي التليد ، وأدبنا العتيد الذي لا يستطيع من يقرأه إنكار ما فيه من صونٍ لأمجادِ أمتنا وحفاظٍ على تراثنا الذي نعتزُّ ونفتخر به .

ولقد كان الأدب في هذه الحقبة وسيطاً بين التقليد والتجديد ، فلا يمكن التغاضي عما في أدب هذه الفترة من إبداع ، بالرغم من ابتعاده أحياناً عن القوة والجزالة التي كانت من قبلُ. ولعلَّ أجملَ ما نفع عليه في سمات هذا الأدب البساطة المتناهية الممزوجة بالواقعية المتناهية أيضاً .

كل ذلك كان حافزاً لاختيار هذا العصر الأدبي مجالاً للدراسة ، أما موضوع السخرية - فما أوجنا إلى اتباعه في عصرنا الحالي - حيث تختلف العصور والحال واحدة تقريباً .. فالسخرية تجسّد المعاناة والألم والنقد الاجتماعي والسياسي بلسانٍ هزلي فكه ، فتجمع بين الجد والهزل .. وتترك في النفوس انطباعاً قوياً ، وتؤثر في القلوب تأثيراً عميقاً ، حتى أنها في تأثيرها أشد من الهجاء البحت أحياناً .. كل ذلك كان له تأثير في اختياري لهذا الموضوع .

وقد واجهت في عملي مجموعة من الصعوبات ، منها ما هو متعلق بجمع المادة ، حيث إنّ بعض شعراء هذه الحقبة ليس لهم دواوين تجمع أشعارهم فهي متناثرة في مصادر مطبوعة وأخرى مخطوطة . ومن الصعوبات ما هو متعلق بأوضاع خاصةٍ منعتني من السفر والحصول على مصادر أكثر للدراسة .

أما فيما يتعلّق بالمنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة ، فكان المنهج التكاملي ، حيث اقتضت الحاجة في الدراسة إلى الجمع بين أكثر من منهج ، فكان المنهج التاريخي للتأريخ للشعراء ولبعض الحوادث المتعلقة بأشعارهم ، والمنهج الوصفي التحليلي في تحليل النصوص وبيان خصائصها وأغراضها ، وكان المنهج النفسي الذي فيه عرّضت لنفسيات الشعراء وحالاتهم الانفعالية والاجتماعية التي دفعتهم لنظم الشعر في موضوع السخرية .

أما فيما يتعلق بهيكل البحث ، فقد ارتأيت تقسيمه إلى تمهيدٍ وستة فصول . أما التمهيد فقد تحدثتُ فيه عن مفهوم السخرية وعلاقتها بالمجتمع وأنواعها والأساليب المتبعة فيها وأسباب اللجوء إليها .

وأما الفصل الأول فكان بعنوان السخرية من ملامح الإنسان الخارجية المتعلقة بأعضاء الجسم واللحية والهيئة العامة .

وأما الفصل الثاني فالسخرية من الجوانب المعنوية في ذات الإنسان وحياته ، حيث السخرية من ضيق الحال والفقر وكذلك البخل ، والسخرية من الغباء والنقل والسخرية من الأنساب والسخرية من التناقض في حياة الشخص ، وأخيراً السخرية من عادات اجتماعية سيئة.

وأما الفصل الثالث فكان في السخرية من فئات اجتماعية مختلفة حيث لم تسلم فئة تقريباً من سخريّة الشعراء فقد سخروا من المرأة ، وسخروا من الحرفيين وحرفهم ، ومن الأدباء وأدبهم، ومن أهل العلم والفضائل وجعلوا نصيباً من السخرية للمغنين والمغنيات ، وحتى الخدم الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً لم يسلموا من سخريّة الشعراء وسخر الشعراء من مواقف متعددة أدرجتها تحت عنوانٍ واحد .

أما الفصل الرابع فكان في السُّخْرية السِّياسية في الشعر ، وقسمته إلى قسمين الأول السخرية من الملوك والأمراء ، والثاني : السخرية من موظفي الدولة .

أما الفصل الخامس فسخرية دينية تتمثل في السُّخْرية من المتصوفة والتطاولِ على الشريعة والسخرية من أهل الذمّة من يهودٍ ونصارى .

وأخيراً ، الفصل السادس ، ويتمثل في الدراسة الفنية ، وقسمته إلى ثلاثة مباحث: الأول : اللغة ، والثاني : الأسلوب والثالث : الصورة الشعرية .

وقد أنهيت البحث بخاتمة ضمّنتها أهم النتائج لدراستي ، ثم كتبت في نهايته قائمة المصادر والمراجع التي استعنت بها .

وأما مصادر البحث ، فأهمها كتب التراجم وتاريخ الأدب ومنها الوافي بالوفيات للصفدي والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد . أما المراجع فكان أهمها كتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي لمحمود رزق سليم وكتاب آفاق الشعر في العصر المملوكي لياسين الأيوبي . ولا أغفل عن ذكر دواوين الشعراء المتوافرة في المكتبات أيضاً .

وفي الدراسة الفنية اعتمدت على عددٍ من الكتب منها تحرير التحبير لابن أبي الأصبع
والعمدة في صناعة الشعر لابن رشيق القيرواني وغيرها .
هذا هو محتوى العمل الذي قمتُ به بإيجاز .

التّمهيد

السُّخرية وعلاقتها

- أ- مفهوم السُّخرية .
- ب- علاقة السُّخرية بالمجتمع .
- ج- أنواع السُّخرية :
 - 1- السُّخرية الاجتماعية .
 - 2- السُّخرية السياسية .
 - 3- السُّخرية الدينية .
- د- أساليب السُّخرية .
- هـ- أسباب اللجوء إلى السُّخرية .

أ- مفهوم السُّخرية :

لغة : من الفعل سَخِرَ . نقول سَخِرَ منه وبه سَخَرًا وسَخَّرًا ومَسَخَرًا وسُخِرًا بالضم ، وسُخِرَةً وسُخِرِيًّا وسُخِرِيًّا وسُخِرِيَّةً أي هزء به . (1)

اصطلاحاً : السُّخرية نوع من التآليف الأدبي أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس انتقاء الرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية فردية كانت أم جماعية ، وكأنها عملية رصد أو مراقبة لها ، وتكون في أساليب خاصة منها التهكم أو الهزل أو الإضحاك ، كل ذلك في سبيل التخلُّص من خصال وخصائص سلبية . (2)

ب- علاقة السُّخرية بالمجتمع :

امتاز الشعر في العصر المملوكي بواقعية التصوير ، حيث استمد الشعراء مادة صورهم الجزئية من واقع مجتمعهم ، بل صوروا هذا الواقع في شتى مجالاته ، فصوِّروا الجوع والفاقة والحرمان ، وأبرزوا واقع التحلل الخلقي والاجتماعي (3) كما عبَّروا عن مجتمعهم ومجريات أحداثه ، ونفَّسوا من خلال الشعر عما يسري بأنفسهم من مشاعر بأسلوب متهكم ساخر يهدف إلى التخلص من الخصال السلبية في مجتمعهم .

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سَخِرَ .

(2) ينظر : عبد الحميد ، شاکر ، الفكاهة والضحك ، 51 .

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 444 .

كل ذلك يدفعنا إلى القول إن البيئة الإجتماعية للشعب العربي تجتر آلامها وآمالها ،
وتشكو وتكتم ، أو تُسري عن نفسها بالسُّخرية والنكتة والفكاهة والنقطة اللاذعة العابرة . (1)

ج - أنواع السُّخرية :

1- السُّخرية الاجتماعية :

وينطوي تحتها فن الشكوى ، ونراه في النقد الاجتماعي أو في الشعر الفكاهي ، ولعلَّ
الفكاهة كانت أمس به وألصق ، بل لعلها كانت مظهراً من مظاهره ووسيلة من وسائله (2)
حيث ذهب الشعراء إلى تصوير فقرهم بطريقة ساخرة . وأبرزوا من خلالها بيان المفارقات
بين الفقراء والأغنياء ، وفي سبيل إبراز هذه المفارقة اتخذ الشعراء من أنفسهم ومن حياتهم
ودورهم مادةً لما يعرضونه من صورٍ ساخرةٍ تبرز عناءَ الناس وشقاءهم . (3)

كما نجد في هذا النوع من السخرية ملامح الإنسان الخارجية في الشعر ، ومقابلها
الجوانب المعنوية في ذات الانسان وحياته كالبخل ، والغباء والنقل ، وغيرها .

كما سدّد الشعراء سهام سخريتهم نحو عادات اجتماعية سيئة برزت في عصرهم .

وفي السخرية الاجتماعية كذلك نجد سخريةً من فئات اجتماعية مختلفة مثل المرأة التي
تصل السخرية ذروتها منها في الوصف والغمز واللمز عندما يتعلق الأمر بالشيب والشيوخ
عندها . (4)

(1) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 214/7 .

(2) ينظر : نفسه ، 30/7 .

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 160 .

(4) ينظر : القشطيني ، خالد ، سجل الفكاهة العربية ، 76 .

ونجد سخرية من الحرفيين وحرفهم ومن الأدباء وغير ذلك من جوانب السخرية الاجتماعية التي تظهر الروح الفكاهة عند المصريين .

2- السُّخْرِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ :

برز بعض الشعراء في العصر المملوكي في باب النقد السياسي⁽¹⁾ وهو نوع إيجابي من الهجاء تجاوز حدود الفردية الضيقة ، ليتناول المثالب ذات الآثار السلبية في المجتمع⁽²⁾ حيث كان الشعراء يسخرون مما جنته البيئة السياسية وينعون عليها جهلها أو تجاهلها لأُمور العامة.⁽³⁾

3- السُّخْرِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ :

أثرت بعض المذاهب والتيارات الدينية التي كانت شائعة في العصر المملوكي في الشعراء ، فبروا ألسنتهم في الهجاء والسخرية من كل ما هو منير للهزل . كما كان للحروب الصليبية التي كانت مشتعلةً آنذاك أثرٌ في توقد الصراع بين المسلمين والأقباط ، مما دفع المسلمين إلى هجاء الأقباط والسخرية منهم⁽⁴⁾ ومن كل من يواليهم أو يوظفهم.

(1) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 13/7 .
(2) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في جنب الشهباء ، 164 .
(3) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 13/7 .
(4) ينظر : الفقي ، محمد كامل ، الأدب في العصر المملوكي ، 136 .

د- أساليب السُّخرية :

نضح العصر المملوكي بلون الهجاء الساخر الذي يصور الشاعر من خلاله خصمه تصويراً كاريكاتورياً مضحكاً . ويمتاز هذا الأسلوب بالرّشاقة والبعد عن الفحش والابتذال ، والأهم أنه يصدر عن طاقة ذهنية ساخرة ومُبدعة تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة.(1)

وهناك الحيز العبثي الساخر الذي لا يخلو من التجريح ، ولكنه تجريح لا يصل إلى هناك الأعراض كما يقول ياسين الأيوبي(2).

وقد كانت السخرية سلاح كثير من الشعراء ، وكان لكل شاعر طريقته وأسلوبه ، فمنهم من اكتفى باللمزة الخاطفة ، ومنهم من تفنن في تضخيم العيوب وتجسيد النقائص ، ومنهم من كان يلزم بخبثٍ وكأن الأمر لا يعنيه ، أو كأن الأمر جاء عَرَضاً .(3)

هـ - أسباب اللجوء إلى السُّخرية :

هناك من الشعراء من لجأ إلى السخرية بهدف التلهي والضحك ، ودفع السامة والملل، ورفع كابوس الهم والحزن ، وإبعاد النفس عن مشاغل الحياة بإطلاقها من أسر الجد .(4) ولكن شعراء آخرين لجأوا إليها لإبراز عيوب المجتمع ، أو للتنفيس عن مشكلاتهم في الحياة بطريقة ساخرة ضاحكة .(5)

(1) ينظر : هداره ، محمد مصطفى ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، 436.

(2) ينظر : آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 183.

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 157 .

(4) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 411/7.

(5) ينظر : سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر المملوكي ، 291/1.

والأهم ، أن بعض الشعراء وعوا مسؤوليتهم الأدبية ، وموقعهم المميز ، فأشاروا إلى
مواضع الفساد والإفساد والتزلف والرشوة والجهل وغير ذلك بهدف إصلاح المجتمع والقضاء
على مظاهر الفساد فيه . (1)

ومن الشعراء من سخر لأهداف سياسية بحيث سعوا إلى وضع حدٍّ لممارساتٍ سياسية
ودينية غير مقبولة والتحريض عليها بهدف القضاء عليها ، وتنقية المجتمع من آثارها السلبية.

(1) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 277.

الفصل الأول

السُّخْرِيَّة من ملامح الإنسان الخارجية في الشَّعر .

أولاً : السُّخْرِيَّة من الهيئة العامة .

ثانياً : السُّخْرِيَّة من أعضاء الجسم .

ثالثاً : السُّخْرِيَّة من اللحية .

الفصل الأول

السُّخْرِيَّةُ مِنْ مَلَامِحِ الْإِنْسَانِ الْخَارِجِيَّةِ فِي الشُّعْرِ

أولاً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ الْهَيْئَةِ الْعَامَةِ لِلْجِسْمِ :

يُعدّ الجمال الموضوع الأسمى لروائع الأدب الغنائي والغزل الرقيق ، ومقابلته " القبح " الذي أصبح الموضوع الطبيعي للسخرية والكوميديا والهزل ، ومن هنا ، غدا الظرفاء يتهربون من التنقز منه إلى التهكم به ⁽¹⁾ فقد سخر الشعراء في مواقف كثيرة من أناس وجدوا فيهم العيوب، أو بعض مظاهر القبح ، ولكن السخرية - باعتقادي - كانت نابعة في معظم الأحيان من حالة نفسية يُعانيها الشاعر حيث الغيظ والغضب من المهجّوين الذي أجج المشاعر السلبية في قلوب الشعراء فتحوّلت إلى نيرانٍ نفتوها في وجه المهجّوين ، كلها سخرية وتهكم .
فالبهاء زهير ، يسخر من أحد الثقلاء ، مصوراً مظهره بالوعر ، ومُعتبراً بعده عنه الراحة الكبرى ، ولربما لم يكن في هذا المهجو عيوباً تُذكر لكن هذا المظهر ارتسم في مخيلة الشاعر تماشياً مع ثقل دم المهجو يقول : ⁽²⁾

أرى مَنْظَرَكَ الْوَعْرَا
كَ عَنِّي الرَّاحَةَ الْكُبْرَى

أرْحَنِي مِنْكَ حَتَّى لَا
فَقَدْ صِرْتُ أرى بَعْدَ

ويقول في شخص آخر : ⁽³⁾

لَهُ زَفْرَةٌ مِنْ شَرِّهِ وَشُوَاطِ
قَبَائِحُ سَوْءٍ كُلُّهَا وَغِلَاطِ
وَكَلْبٌ وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا حِفَاطِ

وَأَسْوَدَ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ خَصَلَةٌ
خَلَائِقُهُ وَالْفِعْلُ وَالْوَجْهُ وَالْقَفَا
غُرَابٌ وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْتُرُ سَوَاءً

(1) ينظر : القشطيني ، خالد ، سجل الفكاهاة العربية ، 74 .

(2) البهاء زهير ، بيوانه ، 143 .

(3) نفسه ، 191 .

هنا يشوّه الشاعر المهجو خَلْقاً وخُلُقاً ، مفتتحاً سخريته بذكر سواده ونفي كل الصفات الحسنة والخصال الحميدة عنه ، ويبيّن لنا وجه الشبه بين خلّاقه وأفعاله ووجهه وقفاه ، فكلها قبائح سوءٍ على حدّ سواء . ويُمعن أكثر في السخرية منه حين يشبّهه بالحيوانات ، فهو كالغراب قبحاً وكالكلب في سوء طبعه .

ويقول في آخر : (1)

وَأَسْوَدُ شَيْخٍ فِي الثَّمَانِينَ سِنَّهُ عَدَا وَجْهَهُ مِنْ أَبْيَضِ الشَّيْبِ أَبْلَقًا(2)
مرّةً أُخرى يستغل الشاعر سواد اللون للسخرية من مهجوه ، ويمزج بين سواد اللون وبياض الشيب جاعلاً منهما مادةً للتهكم .

ويستغل الجزار كذلك صفة السواد للسخرية من شاعرٍ أسود نالَ من السلطان رزقاً ومالاً، الأمر الذي أعاظ الجزار فسخر من شكله ومظهره قائلاً : (3)

غَيْرُ خَافٍ عَنكَ الَّذِي نَالَهُ الْأَسْوَدُ بِالْأَمْسِ مِنْ نَدَى السُّلْطَانِ
وَتَمْشِيهِ بِالْعِمَامَةِ وَالثُّوبِ وَمَنْدِيلِ الْكُمِّ وَالطَّيْلِيسَانِ(4)
قُلْتُ : إِذَا فَصَلَّتْ عَلَيْهِ أَرَى الرَّخْرَفَ يُتَلَّى بِالنَّصِّ فَوْقَ الدَّخَانِ

يسخرُ الجزار في الأبيات السابقة أسماء السور القرآنية لخدمة غرض السخرية من هذا الشاعر الأسود ، موضحاً أن لباسه الجميل وتمشيه بالعمامة والثوب والأكمام والطيلسان غير كفيلة بإخفاء صفات القبح عنه ، فهو في زينته إن أردت تفصيلاً كالزخرف فوق الدخان.

(1) البهاء زهير ، ديوانه ، 235.

(2) البلق : سواد وبياض ، ويقال للدابة أبلق وبلقاء ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بَلَقَ.

(3) الصفدي ، نصره الشاعر على المثل السائر ، 327.

(4) الطيلسان ، ضربٌ من الأكسية ، وهو ليس بعربي ن أصله فارسي ، إنما هو تالشان فأعرب ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة طَلَسَ.

ويسخر صفي الدين الحلي من متكبرٍ جهم الوجه بقوله : (1)

لِي جَارٌ كَأَنَّهُ الْبَوْمُ فِي الشَّكْلِ وَلَكِنْ فِي عُجْبِهِ فُغْرَابٌ
فشكل المهجو شبيهه البوم ، وفي تكبره وعُجبه هو كالغراب البعيد كلَّ البعد عن الجمال
الذي يدعو إلى الكبرِ والنتيه والإعجاب بالنفس .

ثانياً : السُّخرية من أعضاء الجسم:

سخر الشعراء من أعضاء مهجويهم وخصوصاً العاهات الجسدية كالعور وغيره .

فيسخر صفي الدين الحلي في أبيات له من رجلٍ عظيم الأنفِ ، قائلاً : (2)

لَوْ عَدَا أَنْفُكَ الْعَظِيمُ عَدَا وَهـ وَوَقُودٌ لِلنَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ
ثُمَّ قَالُوا: هَلَا امْتَلَأَتْ لَقَالَتْ: هُوَ حَسْبِي وَلَمْ تُرِدْ مِنْ مَزِيدٍ
فهو يشبهه أنف مهجوه بمخزن وقودٍ لنار جهنم ، ومن عظمه وكبره سدَّ حاجتها ،
فقالت حين سئلت هَلَا امْتَلَأَتْ : إن هذا الوقود من هذا المخزن سدَّ حاجتها ، ورفضت
المزيد، وكل هذا جاء في إطار سخرية شديدة من هذا المهجو وأنفه .

(1) الحلي ، صفي الدين ، **ديوانه** ، 534.

(2) نفسه ، 532.

أما ابن دانيال ، فيجعل من رؤيته لوجهه في الماء قصةً فكاهية قام بنسجها وتتبع

جزئياتها ليكون مشهداً يتفق مع طبيعته (1) حيث يقول : (2)

وَلَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَاءِ شَيْخاً وَهُوَ جَاثٍ فِي الْحَبِّ كَالْعِيَارِ
شَيْخٌ سَوْءٍ كَالْتَلَجِ دُقْنًا وَلَكِنْ وَجْهُهُ فِي سَوَادِهِ كَالْقَارِ
أَشْبَهُ النَّاسِ بِي وَقَدْ يَشْبَهُ النَّيِّ سُنُّ أَخَاهُ فِي حَوْمَةِ الْجَزَارِ
فَاعْتَرَانِي رُغْبٌ وَنَادَيْتُ مَا كُنْتُ تَأْخُلُ اللَّصُوصَ فِي الْأَزْيَارِ
وله أيضاً في تصوير نفسه : (3)

له صورةٌ يُسْتَحَنُ الْقَرْدُ عِنْدَهَا عَلَى أَنْ وَجَةَ الْقَرْدِ أَحْسَنُ مَنْظَرًا
إِذَا مَا ابْتَدَانِي بِالْحَدِيثِ حَسِبْتُهُ تَسْوَكٌ مِنْ فَرَطِ النَّتُونَةِ بِالْخِرَا
فصورته قبيحة لدرجة أن القرد إذا ما قورن بها استحسن مظهره ، وليس هذا فقط ،
بل إنه إن تحدّثت كانت لغمه رائحة كريهة جداً ، وكأنها - لفرط نتونتها - ناتجة عن تسووك
الشاعر بما ذكره في نهاية البيت الثاني .

وابن دانيال هنا يحاكي الحطيئة الذي لم يجد من يهجوّه في آخر المطاف ، فهجا نفسه

في حديثه عن صورته التي رآها في الماء (4) وذلك حين قال : (1)

أَرَى لِي وَجْهًا شَوْهَ اللَّهِ خَلْقُهُ فُقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ

ويتتبع ابن دانيال الشواذ من ذوي العاهات فيستوقفهم في مخيلته ، ورسم لهم صورةً

ساخرة (2) ومن ذلك ما قاله في أقطع : (3)

(1) ينظر : القباني ، عبد الحليم ، مع الشعراء أصحاب الحرف ، 101.

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 180.

(3) نفسه ، 175.

(4) ينظر : القباني ، عبد الحليم ، مع الشعراء أصحاب الحرف ، 41.

وأقطع قلبتُ لهُ هل أنتَ لصٌّ أوحَدُ
فقال: هذي صنعةُ لم يبقَ لي فيها يدُ

ومثله شمس الدين بن الصانع الذي سخر من من رجلٍ أقطع في قوله : (4)

تجنب كلَّ أقطع فهو لصُّ يريدُ لك الخيانة كلَّ ساعةُ
وما قطعوه بعد الوصل لكن أرادوا كفةً عن ذي الصنعةُ

ويقول ياسين الأيوبي إن الشاعر ينسج خيوطه من ثوب المهجو نفسه ، حيث يتلاعب

بلفظ العاهة الجسدية عابثاً بصاحبها من غير خدشٍ أو تجريح ، ويرى أنه هجاء لطيف فيه

شيءٌ من التسلية . (5)

ولكن برأيي أيُّ لطفٍ في هذه الأبيات ، وأين هو العبث الذي لا يخدش ولا يجرح !؟

إنَّ الشاعر هنا كان جارحاً وقاسياً لأنه ليس كلَّ أقطع بالضرورة لصاً ، ولكن الشاعر تسرّع

في إطلاق حكمه وتعميمه .

أما محيي الدين بن الطاهر فيقولُ ساخرأً من رجلٍ أعور: (6)

وأعور العين ظلٌّ يكشفها بلا حياءٍ منه ولا خيفةُ
وليس يُلقى الحياءُ عند فتىً عورتَه لا تزال مكشوفةُ

نرى في البيتين السابقين كيف أن سخرية الشاعر امتزجت بالقسوة والتجريح ،

وابتعدت عن حسِّ الفكاهة والضحك .

ومثله ابن الوردي الذي سخر من رجلٍ أعور ، حيث قال : (7)

لا تصحبنَّ أعورا وإن تنأهى زينةُ

(1) الحطيئة ، ديوانه ، 257.

(2) ينظر : سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر المملوكي ، 172/2.

(3) الصفيدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 104.

(4) بردي ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، 196/8.

(5) ينظر : آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 184.

(6) الحموي ، ابن حجة ، خزنة الأدب ، 254.

(7) ابن الوردي ، ديوانه ، 268.

لَوْ كَانَ فِيهِ رَاحَةٌ مَا فَارَقْتُهُ عَيْنُهُ
فالشاعر استغل هذه العاهة ، محاولاً الإضحاك ، ساخرًا منها على سبيل المزاح ،
غير آبهٍ ولا مبالٍ بمشاعر أصحابها .

ويقول أيضاً ، ولكن هذه المرة في أعورين : (1)

أَعُورٌ بِالْيَمْنَى إِلَى جَنْبِهِ أَعُورٌ بِالْيَسْرِى قَدْ انْضَمَا
فَقُلْتُ يَا قَوْمُ انظُرُوا وَاَعْجَبُوا مِنْ أَعُورِينَ اِكْتَفَا أَعْمَى
مَزَحَ الشاعِر فِي صُورَةِ شَعْرِيَّةٍ غَرِيبَةٍ بَيْنَ أَعُورِينَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا أَعْمَى ، وَرَسَمَ لَنَا
صُورَةَ يُمْكِنُ طَبْعُهَا فِي أَذْهَانِنَا لَنَرَى مِنْ خِلَالِهَا عَمَلِيَّةَ انْدِمَاجِ الْأَعُورِينَ لِيَكُونَ أَعُورِينَ بَيْنَهُمَا
أَعْمَى .

من خلال ما سبق نرى كيف تَفَنَّنَ الشعراء في السّخرية من هيئة الجسم وأعضائه
ولونه وأمعنوا في السخرية ، حتى جاعتنا هذه الصّور الفكهة المضحكة أحياناً ، والمقززة
القاسية أحياناً أخرى .

(1) نفسه ، 239.

ثالثاً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ اللَّحِيَّةِ :

كان للحية نصيب كبير في الشعر ، ولقد أحببها العرب واحترموا أربابها ، وجعلوها مظهراً من مظاهر الوقار ، وشعاراً من شعارات الرجال المتمسكين بدينهم ، ولأنهم أحبوها ، كرهوا من يستغلونها ويتخفون وراءها ، موارد جهلهم وسوء خلقهم خلفها (1) فسخر الشعراء من هؤلاء الذين يستغلون الحية وجعلوا موضع سخريتهم الحية نفسها .

يقول الخياط الدمشقي في هجاء رجلٍ ملتجٍ : (2)

كَمْ تُظْهِرُ الْحُسْنَ الْبَدِيعَ وَتَدَّعِي وَبِيَاضُ وَجْهِكَ فِي النَّوَاطِرِ مُظْلِمٌ
هَلْ تَصْدُقُ الدَّعْوَى لِمَنْ فِي بِالذَّقْنِ كَذْبَهُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ
وَجْهَهُ

يَسْخَرُ الشَّاعِرُ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي يَدَّعِي الْوَرَعَ وَالتَّقْوَى مُظْهِراً الْحُسْنَ الْبَدِيعَ مِنْ خِلَالِ التَّحَاثُ ، فَيَلْتَفِتُ الشَّاعِرُ حَوْلَ هَذِهِ اللَّحِيَّةِ الَّتِي اسْتَغْلَاهَا مَهْجُوهٌ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى تَقْوَاهُ ، بِحَيْثُ حَوَّلَهَا الشَّاعِرُ إِلَى دَلِيلٍ عَلَى كَذْبِ هَذَا الْمَلْتَجِي وَسُوءِ ادِّعَائِهِ .

ومن الشعراء الذين فاضت قرائحهم في هذا الشأن البهاء زهير حيث يقول في شيخ

ملتجٍ: (3)

وَأَسْوَدُ شَيْخٍ فِي الثَّمَانِينَ سِنَّهُ عَدَا وَجْهَهُ مِنْ أَبْيَضِ الشَّيْبِ أَبْلَقَا
لَهُ لِحْيَةٌ مَبْيُضَّةٌ مُسْتَدِيرَةٌ أَشْبَهَتْ فِيهَا عُقَاباً مُطَوَّقَا

فالشاعر يجعل من لحية هذا الشيخ العجوز مادة للسخرية منه ، فالحيته مبيضة مستديرة ، ووجهه الأسود مغمور تحتها ، ومع هذا البياض وهذا السواد تحتها غدا هذا الرجل كالعقاب ، وأي عقاب ؟ عقاب مطوق بالبياض .

(1) ينظر : أمين ، بكرى الشيخ ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، 145 .

(2) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 302/4 .

(3) البهاء زهير ، ديوانه ، 235 .

وله قصيدة في أحق ملتج ، يستطرد فيها في وصف لحيته ، متقناً في السخرية ،

مُغالياً في التهكم ، حيث يقول : (1)

وَأَحْمَقُ ذِي لِحْيَةٍ كَبِيرَةٍ مُنْتَشِرَةٍ
طَلَبْتُ فِيهَا وَجْهَهُ بِشِدَّةٍ فَلَمْ أَرَهُ
مَعْرِفَةَ لِكَيْلِهِ أَصْبَحَ فِيهَا نَكْرَهُ

الشاعر يربط هنا بين الحمق واللحية ، حيث يُستدل على الحمق بطول اللحية كما

يُقَال ، لأن مخرجها من الدماغ ، فمن أفرط في إطلاق لحيته قلّ دماغه ، ومن قلّ دماغه قلّ

عقله ، ومن قلّ عقله فهو أحمق . (2)

وهذا الأحمق الذي يتحدث عنه الشاعر أصبح نكرةً مجهول الهوية لأن لحيته الكبيرة

المنتشرة تخفي معالمه ، ويكمل الشاعر : (3)

ثُورٌ غَدَاً أُعْجِبَهُ بِلِحْيَةٍ مُدَوَّرَةٍ
لَوْ كَانَ ذَاكَ الثُّورُ عَجْجًا لِأَعْبَدْتُهُ السَّمْرَةَ
تَبَّأَ لَهَا مِنْ لِحْيَةٍ كَبِيرَةٍ مُحْتَقَرَةٍ

ينعت الشاعر مهجوهً بالثور الذي غداً أعجوبةً بلحيته المدوّرة ، ويلعن هذه اللحية

المحتقرة ، ثم يكمل قائلاً : (4)

عَظِيمَةٍ لِكَيْلِهَا لَيْسَتْ تُسَاوِي بَعْرَهُ
كَمْ قَرِيَةً لِلْقَمَلِ فِي حَافَاتِهَا وَمَقْبَرَهُ

(1) البهاء زهير ، ديوانه ، 162 .

(2) الأبيهي ، المستطرف من كل مُستطرف ، 16/1 .

(3) البهاء زهير ، ديوانه ، 162 .

(4) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 162 .

وهنا أجادَ الشاعرُ في امتهانِ هذه اللحية رغمَ عظمِ حجمها ، وصوّرَها لنا أرضاً أنشأ القمل عليها قُراه ، فيها حياته ومماته . وهذه صورة ساخرة ومقرزة ولكنها مضحكة في الوقت نفسه .

بعد ذلك يبدأ الشاعر بنظم كلماته لِتَتَبَعَ في أذهاننا على شكل رسومات كاريكاتورية ، تدعونا للضحك حين يقول : (1)

فوقَ عِظامِ نَحْرِهِ	قد نَبَّت في وَجْهِهِ
مُظْلَمَةً مَكْدَرَهُ	بِأَرْدَةٍ ثَقِيلاًة
فوقَ البِلادِ مُمَطِّرَهُ	كَأَنَّهَا سَاحِبَةٌ
مِنَ الكِرَامِ البَرَرَهُ	مَا كَانَ قَطُّ رَبُّهَا

وكانه ينقل لنا حالة الطقس من خلال وصفه لهذه اللحية ، حيثُ البُردُ والثقلُ والظلامُ والتكدُّرُ ، ويصفها بالسَّحابة السوداء الثقيلة الممطرة التي تُغطي البلاد ، وينفي في البيت الأخير صفة الكرم والجود عن صاحبها ، كل ذلك في إطارٍ مضحكٍ أُتَحَفْنَا به فأضحكنا . ويختم الحديث عن هذه اللحية بقوله : (2)

مُضْحِكَةٌ مَا كَانَ قَطُّ مِثْلَهَا لَمَّا سَخَّرَهُ

أما ابن الوردي فيقول في شخصٍ لحيته طويلة : (1)

لحيثُ طويلاًة	قد أثْقَأَتْ أحناءَهُ
لو غاصَ في البحرِ بها	لعرقَأَتْ أسماكَهُ

تصوير طريف للحية هذا الرَّجُلُ ، إذ جعل الشاعرُ منها شبكةً تعرقل أسماك البحر وتكون بمثابة قصيدة لو غاص صاحبها في البحر .

وبهذه الأبيات الطريفة ننهي حديثنا عن السخرية من اللحية .

(1) نفسه ، 162-163 .

(2) نفسه ، 163 .

(1) ابن الوردی ، دیوانه ، 394.

الفصل الثاني

السُّخْرِيَّة من الجوانب المعنوية في ذات الإنسان وحياته في الشعر

أولاً : السُّخْرِيَّة من ضيق الحال .

ثانياً : السُّخْرِيَّة من البخل .

ثالثاً : السُّخْرِيَّة من الحمق والنَّقل .

رابعاً : السُّخْرِيَّة من الأنساب .

خامساً : السُّخْرِيَّة من التناقض في حياة الشخص .

سادساً : السُّخْرِيَّة من إخلاف الوعد .

سابعاً : السُّخْرِيَّة من مفاصد إجتماعية وأخلاقية أخرى .

الفصل الثاني

السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْجَوَانِبِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي ذَاتِ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ فِي الشُّعْرِ

أولاً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ :

"تنوعت شكاوى الشعراء ما بين توجع وتدمر ونفور"⁽¹⁾ ولعلَّ أولَ ما يُلاحظُ عندهم هو الشكوى الدائمة من جور الزمان ، ومن سوء الحظ ، حيث حكم عليهم بالفقر والعازة والفاقة⁽²⁾ فمنهم من رزَّخ تحت أنقال الفقر والعوز ، وضافت به الدنيا ، إنطلاقاً من حجرته الضيقة ، وثيابه الرثة ، وطعامه النادر ، مما جعله عنوان زمانه في عُسرِ الحال ، وشدة الهزال وتقلب الأيام.⁽³⁾

ولعلَّ أولَ الشعراء الذين تجدر الإشارة إليهم ، الجزار ، الذي بالغ في وصف فقره وشكوى حاله وفاقته حتى انقلب عنده الأمر إلى سخرية وضحك ، ومن ذلك صورته الطريفة المضحكة التي قالها في وصف داره الخربة ، حيث قال :⁽⁴⁾

وكن نزلتُ إلى السَّابِغَةِ	ودار خرابٍ بها قد نزلتُ
محجَّتْهَا لِلوَرَى شَابِغَةَ	طريقٌ من الطرقِ مسلوكةٌ
بها أو أكونُ على القارِعَةِ	فلا فرقٌ ما بينَ أني أكونُ
فثُصْغِي بِلا أذنِ سامِعَةِ	تساورها هفواتُ التَّسِيمِ
فتسجدُ حيطانها الرَّاعِغَةِ	وأخشى بها أن أقيمَ الصَّلَاةَ
خشيتُ بأن تقرأ الواقِعَةَ	إذا ما قرأتُ إذا زُلزَلتُ

" حلقات من المشهد المسرحي الساخر ، وسلَّم من المعاني والصُّور المتدرِّجة عمودياً

وأفقياً من البسيط إلى المركب ومن العام إلى الخاص "⁽¹⁾ ففي البيت الأول يجعل الشاعر داره

(1) الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 307.

(2) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصناعات وأرباب الحرف ، 224.

(3) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 307.

(4) الحموي ، ابن حجة ، خزنة الأدب ، 251.

الخربة لا على الأرض ، وإنما في قاعها ، في سبع أرض . ويجعلها في البيت الثاني محجة للناس الأمر الذي يجعلها بمثابة القارعة كما يقول في البيت الثالث . حتى أنه لشدة خرابها يخشى إقامة الصلاة فيها فتسجد حيطانها الراكع ، ويخاف من قراءة سورة "الزلزلة" فيها خشية قراءتها "الواقعة" .

ويظهر أن الجزار كان يُكثر من إضحاك الناس على حياته ومعيشته ، ولم يكن يُبالي في سبيل ذلك أن يصف داره وصفاً مضحكاً ، أو أن يصف بعض ثيابه وملابسه (2) كما في قوله: (3)

لي نصفية تُعدُّ من العُمر سنياً غسَلْتُها ألفَ غسَلَة
كُلُّ يومٍ يحوطُها العَصْرُ والدَّقُّ مراراً ولن تُقِرَّ بعُملُه
أين عيشي بها القديمُ وذاك التَّيه فيها وخطرتي والشَّمْلَة
حيثُ لا في أجنابها رُقعة قطُّ ولا في أكمامها وصلَة

فهذه " النصفية " لطالما لبست وصُبغت ، تُدق وتُعصر كلَّ يوم ولكن بلا فائدة ، ويتحسر الشاعر عليها إذ يتذكرها عندما كانت جديدة خالية من الرقع والوصلات ، كل ذلك للدلالة على اهترائها الحالي ، كل هذا بأسلوب فكه ساخر .

(1) الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 385 .

(2) ينظر : ضيف ، شوقي ، في الشعر والفكاهة في مصر ، 78 .

(3) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 304/1 و الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 287/4 .

ويقول في أبياتٍ أخرى : (1)

لي من الشَّمسِ خَلْعَةٌ صَفْرَاءُ لا أَبالي إذا أتاني الشّتاءُ(2)
ومن الزّمهريرُ إذا حَدَثَ الغيمُ ثيابي وطيلسانِي هَوَاءُ
بيتي الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مُدَارٌ وَسَقْفُ بَيْتِي سَمَاءُ
لو تراني في الشمسِ والبردِ قدُ أنحل جسمي لَقُلْتَ إني هَبَاءُ
لي من الليل والنهار على الطو ل عزاءٌ لا ينقضي وهَبَاءُ

لا يسخر الشاعر هنا من ملابسه ، لأنه لا ملابس له ، فمن الشمس له خلعة صفراء ،
وثيابه وطيلسانه الهواء ، أما بيته فالأرض وسقفه السماء . ولا يأبه الشاعر من السخرية من
نفسه حين أنحل البرد جسمه فصار كأنه هَبَاءُ . ويتحدث الجزار عن البرد في موضعٍ آخر
حيث يقول: (3)

أدركوني ، فبي من البردِ همُّ ليس يُنسى وفي حشايَ التهابُ
ألبستني الأطماعُ وهَمًّا ، منها جسمي عارٍ ولي فري وثيابُ
كُلُّما أزرقُ لونُ جسمي من ال بردِ تخيلتُ أنه سِنجَابُ

يُحسُّ الشاعر التخلُّص من موقفِ التحسر والألم إلى السخرية والضحك ، فبرغم الألم
والمرض البادي عليه من خلال شعره ، يسخر من نفسه بأسلوبه الفكاهي المضحك حيث يشبه
نفسه حين يزرق جسمه من البرد بالسنجاب .

وعلى ما يبدو ، فإنَّ بين الشاعر وفصل الشتاءِ عداوةً وكره ، حيث يحدثنا عنه في

موضعٍ آخر بقوله : (4)

إنَّ فصلَ الشّتاءِ مُنذُ نحا جسمي أبَدتُ بيأئِه الأَعْضاءُ
فيه عظمي المبرِّدُ إذ عَنَّ واحتمى الفراءُ

(1) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 309/1 .

(2) الخلعة من الثياب ، ما خلعتَه فطرحته على آخر أو لم تطرحه ، وكل ثوبٍ تخلعه عنك هو خلعة . ابن منظور ، لسان العرب ،
مادة خَلَع .

(3) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 293/13 . و البيهقي ، نيل مرآة الزمان ، 63/4 .

(4) الصفدي ، نصرة الثائر على المثل السائر ، 329 .

ومن الشعراء الذين شكوا ضيق حالهم وفقدهم ، ابن دانيال ، حيث سخر في أبياتٍ عديدة من نفسه وحاله وبيته ، ومن أطرف ما يُمكن ذكره له في هذا المجال وصفه لحاله ولفقره في مسرحيته " طيف الخيال " حيث الفكاهات التهريجية في بعض مشاهدتها (1) ومنا قوله : (2)

أصبحتُ أفقرَ من يروح ويغتدي
في منزلٍ لم يحو غيري قاعداً
لم يبق فيه سوى رسومٍ حَصيرةٍ
تُلقي على طراحةٍ في حشوها
والبقُّ أمثالُ الصراصيرِ خلقةً
ما في يدي من فاقتي إلا يدي
فمتى رقدت رقدت غير ممدد
ومخدةٍ كانت لأم المهتدي
قملٌ شبيهُ السمسم المتبدد
من مُتَّهمٍ في حشوها أو مُجددٍ

منزل الشاعر ضيق لا يتسع لرقاده ، ليس فيه سوى حصير بل رسوم حَصيرة ، ومخدة قديمة بالية ، وهذه المخدة محشوة بالقمل المتبدد الذي يبدو كالسمسم المنثور ، وهي مليئة بالبق والصراصير التي أبلتها وأفسدتها ، كل تلك صور ساخرة ساقتها الشاعر ليؤكد أنه أفقر الناس جميعاً وأنه لا يملك من أمره إلا الفاقة والعوز .

ويرى محمود سالم محمد أن ابن دانيال " قدّم لنا صورة فريدة للفقر المثالي الذي يمكن أن يصيب الناس ، ولولا هذا الفقر ما كان لنا مثل هذا الأدب الذي يعكس وضع الفقراء ، وينفّس كربهم ، ويثير تساؤلاتهم الكامنة وراء ما هم فيه من عوز وفاقة ، والتساؤل بداية البحث عن سبيل الخلاص " . (3)

(1) ينظر : ضيف ، شوقي ، في الشعر والفكاهة في مصر ، 78 .

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 154 وحمادة ، ابراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 165 .

(3) أدب الصنائع وأرياب الحرف ، 256 .

وقد أعاد ابن دانيال وصف بيته وحاله وصفاً مؤثراً ، حيث بلغ به الضيق مبلغاً

عظيماً ، وضاق صدره من ضيق حاله فقال : (1)

لَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَا يُبَاعُ فَيُشْتَرَى إِلَّا حَصِيْرًا قَدْ تَسَاوَى بِالتَّرَى
فِي مَنْزِلٍ كَالْقَبْرِ كَمْ قَدْ شَاهَدْتُ فِيهِ تَكْيِرًا مُقْلَتَايَ وَمُنْكَرًا

يجد الشاعر بيته كالقبر ، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدلُّ على صعوبة عيشه ، ولكن

يسخر مفضلاً القبر على بيته في قوله : (2)

وَالْقَبْرُ أَهْنَا مَسْكَنًا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَ ضَيْقِ سَكْنَاهُ أَطَالِبُ بِالْكَرَى

وقد سخر ابن دانيال من ملابسه سخريته من منزله ، حيث صَوَّرَ لنا ثوبه المرقع

بقوله : (3)

هَذَا وَلِي ثَوْبٌ تَرَاهُ مُرْقَعًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مِثْلَ رِيْشِ الْهُدْهِدِ

السخرية من ثوبه واضحة ، ولكنها لطيفة مقارنة مع وصفه لجبته (4) البالية التالفة

حيث يقول : (5)

لِي جَبَّةٌ فَنَيْتُ مِمَّا أَنْشَيْهَا وَمَا أَحْيَيْتُهَا إِلَّا بِأَشْرَاسٍ (6)
وَرَثْتُ شَاشِيَّ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ أَنَّ الْعِنَاكِبَ قَدْ سُدَّتْ عَلَى رَاسِي

فجبته لا يقيمها إلا النشاء ، ولا تخاطُ إلا بالأشواك الصغيرة لشدة قسوتها ، وشاشه

تألف رثً يظن الناظر إليه أنه نسجُ عناكب لشدة وَهْنِهِ ، ولأن خيوطه قليلة واهية كذلك .

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 151-152.

(2) نفسه ، 152.

(3) حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 167.

(4) الجبّة : ضرب من مقطعات الثياب يُلبس ، وجمعها جُبُبٌ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة جَبَبَ .

(5) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 72.

(6) الأشراس : جمع شرس ، وهو ما صَغُرَ من شجر الشوك ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة شَرَسَ .

ولكن لم يكتفِ ان دانيال بوصفِ ملابسه البالية التالفة بتلك الصفات ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما وصف نفسه عرياناً وذلك إشارةً إلى انعدام ما يلبسه على جسمه ورأسه وانعدام قيمته المادية ، حين قال : (1)

أَوْ مَاذَا الشُّتَا أَتَانِي وَفَوْقِي جُبَّةٌ قَدْ لَبَسْتُهَا مِنْ جِلْدِي
وَلِرَأْسِي مِنَ الْعِمَائِمِ شَعْرِي ذَاتَ مَشْطٍ أَعْيَى بَنَانَ الْمُسَدِي

ننتقل من سخرية ابن دانيال إلى سخرية شاعر آخر هو البوصيري ، حيث سخر من

فقره بسبب كثرة أولاده ، وشكا من ضيقِ حاله وكثرة أسفاره سعياً وراء الرزق . (2)

ومن شعره الذي يتحدث فيه عن أحواله الخاصة قصيدة عرّض فيها شكواه على أحد

الوزراء شاكياً فقره وضيق حاله وكثرة عياله بقوله : (3)

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَزِيرُ الَّذِي أَيَّامُهُ طَائِعَةٌ أَمْرَهُ
وَمَنْ لَهُ مَنْزِلَةٌ فِي الْعُلَا تَكِلُّ عَنْ أَوْصَافِهَا الْفِكْرَهُ

ففي هذه الأبيات محاولة من البوصيري استدرار عطف ممدوحه ، حيث يذكر فيها

مدى سوء حاله ، مقدماً لذلك صوراً مؤلمة تثير في النفوس مشاعر الشفقة والرحمة (4) ولكنها

ممزوجة بالسخرية والضحك في آن واحد حيث يقول : (5)

فِي قَلْبَةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا عَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةً
إِنْ شَرَبُوا فَالْبَيْرُ زَيْرٌ لَهُمْ مَا بَرِحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ
لَهُمْ مِنَ الْخَبِيْزِ مَسْلُوقَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَةَ
أَقُولُ : مَهْمَا اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا تَنَزَّهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخُضْرَةِ

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 238 .

(2) ينظر : الركابي ، جودت ، الأدب من الإحذار إلى الإزدهار ، 177 .

(3) البوصيري ، ديوانه ، 115 .

(4) ينظر : أبو علي ، نبيل خالد ، البوصيري ، شاهد على العصر المملوكي ، 61 .

(5) البوصيري ، ديوانه ، 110 .

تكنم الفكاهة في الأبيات السابقة في مشهد تحلق أولاد الشاعر بعد الصيام حول الخبيزة المسلوقة يسوقها بأسلوب ساخرٍ حيث يجعل من هذه الوجبة نشرة يومية ، ويتابع سخريته من خلال إقناعهم بأن هذا الطعام لا يُمل بقوله : " تنزّهوا في الماء والخضرة " .

ثم يتحدث عن إقبال العيد عليهم وهم في أضيّق حال ، حيث لا قمح ولا خبز ولا فطر عندهم ، مُعادلاً ومساوياً بين أيام الصوم والإفطار بالنسبة لهم ، حيث يقول : (1)

وَأَقْبَلَ الْعِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ قَمْحٌ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فِطْرَةَ

وهذه كلها " أبيات مريرة وإن تخللتها الفكاهة ، وسطورٌ باكية وإن مزجتها النكة " (2)

وشكا ابن دقيق العيد فقره وضيق حاله كذلك ، حيث يقول : (3)

لعمري لقد قاسيتُ بالفقر شدة
فإن بحتُ بالشكوى هتكتُ
مروءتِي
وأعظمُ به من نازل بمِلمة
وقعتُ بها في حيرةٍ وشَتات
وإن لن أبحُ بالصبرِ خفتُ مماتي
يُزيلُ حياتي أو يُزيلُ حياتي

كل ما سبق من أبيات يدل على قسوة حياة هؤلاء الشعراء وضيق حالهم ، ولكن من الغريب ما يُلاحظ عند بعضهم من سخريةٍ من ركوبهم وحيواناتهم للدلالة على حالهم وللسخرية والهزل . (4)

ومن الشعراء الذي تحدّثوا عن حيواناتهم ابن دانيال ، حيث كان له حمار ، فسخر

منه ووصفه وصفاً يدعو إلى الضحك حيث قال : (5)

(1) البوصيري ، ديوانه ، 111 .

(2) سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك وتناجه العلمي والأدبي ، 240/7 .

(3) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 446-445/3 .

(4) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرباب الحرف ، 260 .

(5) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 256 .

وَلَقَدْ رَكِبْتَ مِنَ الْحَمِيرِ مُكْدَمًا مَكْرًا بَطِيًّا لِلْحِرَانِ مَصَاحِبَا
رَجُلَايَ فِي جَنْبَيْهِ مِنْذُ رَكْبَتُهُ لَنْ يَفْتَرَا فَعْدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا

فحماره عنيد حرون ، يستمر راكمه في ركله حتى يمشي ، ولذلك يتساوى راكمه مع

الماشي لأنه لا ينفك يحرك قدميه كيما يمشي حماره .

ولكن لو نظرنا إلى هذه الأبيات السابقة ، لتساءلنا : هل المقصود بالسخرية فيها

الحمار نفسه ؟ أغلب الظن لا ، المقصود صاحب الحمار ، فما الذي يدفعه إلى الصبر على

حمار كهذا ؟ إنه الفقر الذي لا يسمح بشراء حمارٍ غيره. (1)

ولكن يظهر أنه استطاع الاستغناء عن هذا الحمار واستبدله ببرزون ، لكنه لم يكن

أفضل حالاً من سابقه ، يقول فيه ابن دانيال : (2)

قَدْ كَمَّلَ اللَّهُ بَرْدُونِي بِمَنْقِصَةٍ وَشَانَهُ بَعْدَ مَا أَعْمَاهُ بِالْعَرَجِ
أَسِيرٌ مِثْلَ أَسِيرٍ وَهُوَ يَعْرِجُ بِي كَأَنَّهُ مَاشِيًّا يَنْحُطُّ مِنْ دَرَجِ
فَإِنْ رَمَاتِي عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَرَجٍ فَمَا عَلَيْهِ إِذَا مَا مَتُّ مِنْ حَرَجٍ

أعمى وأعرج بردون هذا الشاعر ، وليس على الأعمى حرج ، وليس على الأعرج

حرج ، وبالتالي ليس عليه حرج إذا قتل صاحبه ولكن ، ما الذي صبر الشاعر عليه ؟ إنه

الفقر ، ولكن الشاعر لا يبالي من السخرية من فقره وجعل مركوبه مادةً لهذه السخرية ، وهذا

ما نراه في قوله ساخرًا من بردونه مرة أخرى ، حين يقول : (3)

بَرْدُونٌ سَوْءٌ وَالنَّاسُ تَعْرِفُهُ ذَا عَرَجٍ بَلْ أَصَمُّ ذَا خَرَسِ
يَخَافُ مِنْ رُؤْيَةِ الذَّبَابِ فَمَا يَأْكُلُ قِضْمًا إِلَّا مَعَ الْعَلَسِ
إِذَا رَأَهُ كَلْبٌ عَوَى قَرْمًا وَتُبًّا عَلَيْهِ فِي زِي مَفْتَرَسِ (4)
يَحْسِبُهُ جِيفَةً وَحَسْبِي مِنْ رَكُوبِهِ أَنْتِي عَلَى نَجَسِ (1)

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصناع وأرباب الحرف ، 261 .

(2) حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 168 .

(3) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 81 .

(4) القرم : شدة الشهوة إلى اللحم ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ، قَرَمَ .

حاز جميع الأمراض قاطبة ولم يفتئ منها سوى الضرس

برذون سوء ، أعرج وأصم وأخرس ، جبان خواف كالجيفة من شدة هزاله وضعفه ، نجسٌ ، حائز على جميع الأمراض ولم يفته منها سوى الضرس ، هذه صفات برذون الشاعر ، أيُّ عاقلٍ يحتمل حيواناً مع كلِّ هذه الصفات السيئة المقززة ، إنه إنسان فقير لا يملك شراء مركوب يفتخر به ، الأمر الذي دفعه إلى السخرية من مركوبه .

ويدلل لنا الشاعر مدى سوء حاله ، والبطء في تحسن أموره من خلال الصور التي رسمها للحيوانات التي اقتناها ، فأولاً ذاك الحمار الحرون العنيد ، ثم البرذون الهالك المريض ، وأخيراً استطاع أن يفتني فرساً ، ولكن ، هل هو أفضل حالاً من سابقه ؟ يبدو أن مادية الشاعر لم تمكنه من شراء فرس يُفتخر به فسخر منه حاله حال الحمار والبرذون ، حيث يقول فيه : (2)

فَرَسٌ تَرَاهُ إِذَا سَرَى لِضَعْفِ يَمَشِي الْقَهْقَرَى
يَحْكِي سَكَابَ سَوَى الْمَحَا سَنَ لَا يُبَاعُ فَيُشْتَرَى (3)
وَكَأَنَّه الْفَتَالُ يَمَشِي فِي الطَّرِيقِ إِلَى الْوَرَى

ولكن ما أحلى فرس ابن دانيال إذا ما قورنت بفرس الحلي ، إنه يصفها بكل الصفات

السيئة ، ويسخر منها سخرية شديدة وكأنها عدوة له ، يقول فيها : (4)

وَلِي فَرَسٌ لَيْسَتْ شَكُوراً وَإِنَّمَا بِهَا تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ فِي الْعَضِّ
تُعْرَبُ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ مِنَ الضِّيَا وَالرَّفْسُ
فِيَا لَيْتَهَا عِنْدَ الْعَلِيقِ جَفْوَلَةٌ وَتَجْفَلُ فِي الْأَصَالِ مِنْ شَفْقِ
كَمَا هِيَ مِنْكَارٌ مِنَ الْحِسِّ وَالْجِنْسِ الشَّمْسِ

(1) الجيفة : جثة الميت إذا أنتنت ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ، جَيْفٌ .

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 140 .

(3) سكاب : اسم فرس عبدة بن ربيعة وغيره ، ابن منظور ، لسان العرب ، ، مادة سَكَبَ .

(4) الحلي ، صفى الدين ، ديوانه ، 527-528 .

فَلَوْ شَرَبْتَ بِالْفَلْسِ مِنْ كَفِّ حَاتِمٍ لَأَصْبَحَ نَدْمَانًا عَلَى تَلْفِ الْفَلْسِ
وَلَوْ بَرَزْتَ فِي جَحْفَلٍ تَحْتَ عَنَتِرٍ لَجُدَلٌ وَإِنْقَلَتِ جِيُوشُ بَنِي عَبَسِ

ما أفسى هذه السخرية وأشدّها خصوصاً في البيت الأخير الذي يجعل فيه الشاعر

هلاك عنتره مؤكداً إذا ركبها ، وهزيمة جيوشه حتميةً إذا كانت هذه الفرس بين خيوله .

أما البهاء زهير فيجعل من فرسه مثالاً حياً للمساوي والعيوب ويرى أن ركوبها مثل

ركوب المعصية ، يقول : (1)

وَي كُلهَا مُحْتَوِيَه	وَقَرَسٍ عَلَى الْمَسَا
عَدَدَهَا مُنْتَهِيَه	فَمَا مَسَاوِيهَا لِمَنْ
وَاحِدَه مُسْتَوِيَه	وَلَيْسَ فِيهَا خَصْلَه
وَقَبْحَهَا مُؤَلِّيَه	يَا قَبْحَهَا مُقْبَلَه
كَأَنَّه فِي مَخْرِيَه	مَالِكهَا مِنْ خَجَلَه
مِثْلُ رُكُوبِ الْمَعْصِيَه	مُسْتَقْبِحِ رُكُوبِهَا

يضرب الشاعر مثلاً على فقره وضيق حاله من خلال هذه الفرس ، فمن يقرأ الأبيات

- يعي فوراً - أن مالك هذه الفرس في ضيق حالٍ شديد ، وإلا ما أبقى على هذه الفرس لحظةً واحدة .

ومن خلال ما سبق ، يمكننا أن نرى كيف استغل الشعراء المحسوسات من حولهم

لبيان سوء أوضاعهم وضيق حالهم ، مستخدمين السخرية وسيلةً للكشف عن ذلك .

ويمكننا إدراك مدى براعة هؤلاء الشعراء الذين كانوا قادرين بفكاهتهم وسخريتهم

على تمثيل شخصية ضعيفة ومضحكة في الحياة الواقعية ، جعلونا من خلالها - إذا جاز

(1) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 395 .

القول - نضع يدنا على الجوانب الغربية ونقاط الضعف الأكثر شذوذاً في هذه الشخصية (1)
التي من خلالها بينوا وضع مجتمعمهم وحالاتهم الاجتماعية .

(1) ينظر : إسكاريبيت ، روبير ، الفكاهة ، 40.

ثانياً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْبُخْلِ :

للشعراء في هذا العصر هجاءٌ كثير في البخل وفي الممدوحين الذين لم يعطوهم على مدحهم ، فشعرهم قد أذلهم على أعتاب الأغنياء البخلاء ، فصاروا يتبرّمون ويشكون ضيقهم ، ويضجرون مما هم فيه ، وبخاصة البخل الذي كان وراء إخفاقهم في كسب رزقهم من شعرهم، ووراء بقائهم في الفاقة ، ولذلك هاجموا البخل ، وسخروا من البخلاء ، حاثين الناس على العطاء⁽¹⁾ مثل قول الجزار : (2)

لقد رَضِيَ الرَّحْمَنُ عَنْ كُلِّ مُنْفِقٍ فما بَأْنَا نَلْقَى رَضَى اللهُ بِالسَّخَطِ
مَعِيبٌ عَلَى الْإِنْسَانِ يُعْطِيهِ رَبَّهُ بغير حسابٍ وهو يحسب ما
يُعْطِي

يعيب الشاعر على الناس البخل ويذكرهم بأن الإحسان والعطاء والكرم أمورٌ رضي الله عن صاحبها . محاولاً إبعادهم عن طريق البخل و التقصير ، وإعادتهم إلى جادة الصواب حيث رضي الله .

ويتعجب الجزار في أبياتٍ أُخرى من مسألة البخل بقوله : (3)

إذا كانَ لي مالٌ عَلَامَ أَصْوَنِهِ وما سَادَ في الدُّنْيَا مِنَ الْبُخْلِ دِينُهُ
ومن كانَ في الدُّنْيَا ذا يسارٍ فَإِنَّهُ خَلِيقٌ لِعَمْرِي أَنْ تَجُودَ يَمِينُهُ

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصناعات وأرباب الحرف ، 224 .

(2) الصفدي ، الغيث المسحج في شرح لامية العجم ، 226/1 .

(3) نفسه ، 229/1 .

والجزائر كباقي شعراء الحرف دعا إلى احتراف الصنائع مهما كانت شاقة ، وعَدّها خيراً من إذلال النفس في سؤال الأغنياء البخلاء ، ولو كان عائد هذه الصنائع قليلاً برغم صعوبتها فهو في شعره يسخر من ممدوحيه ومن بخلهم (1) في مثل قوله : (2)

كيف لا أشكر الجزارة ما عَشُدُّ تَ حَفاظاً وأرفضُ الآدابا
وبها أضحت الكلاب تُرجِي ني وبالشعر كُنت أرجو الكلابا
وفي المعنى نفسه يقول : (3)

لا تعبني بصنعة القصاب فهي أزكى من عبير الآداب
كان فضلي على الكلاب فمذمّد حتّ أديباً رجوت فضل الكلاب
إنّه يهزأ من صنعة الشعر الكاسدة التي لا تستطيع توفير قوت يومه ، كما يهزأ من بخل الممدوحين ويشبههم في الكلاب ، وفي مقابل ذلك يمدح مهنة القصابة ، وما زاد من السخرية هو استخدامه التورية في لفظتي الكلاب .

وفي أبياتٍ أخرى له نراه يهجو بخيلاً ساخراً منه بقوله : (4)

لا يَسْتَطِيعُ يَرى رَغيفَ أ عِنْدَهُ فِي البَيْتِ يُكْسِرَ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى وَحَا شَاهُ لَقَالَ : الخبزُ أَكْبَرُ
وَأَلَّهُ مَحَلٌّ فِي البَغَاءِ بِهِ تَقَدَّمَ مِنْ تَأَخَّرَ
هنا يسخر الشاعر من كل مهجوه الذي لا يطبق رؤية رغيف خبز مكسور في بيته ،

بل انه يعظم الرغيف حتى في صلاته ، ويقول في ذلك : (5)

طالما كُنت قبلها تَحْفَظُ الخُبُّ زَ ولكن بالبخل في الصندوق
ليت شعري ماذا تقولُ إذا ما رُمْتَ شتْمي ، قُلْ لي : بأيّ طريق
عَلِمَ اللهُ ما مَضِيَتْ رَسُولاً قَطُّ مِنْ عِنْدِ ابْنَتِي لِعَشِيقِي

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنائع وأرباب الحرف ، 183 .

(2) ابن سعيد ، المغرب في حلّ المغرب ، 316/1 .

(3) الحموي ، ابن حجّة ، خزائن الأدب ، 249 .

(4) ابن سعيد ، المغرب في حلّ المغرب ، 318/1 .

(5) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 291/4 .

لا ولا جئت بالرجال إلى بي — تي وكاسرت عنهم في السوق
 ففي البيت الأول فقط يسخر من بخل مهجوه الذي يحفظ الخبز في الصندوق ، وفي
 الأبيات التي تليه يسخر من أخلاقه السيئة وعاداته المتنافية مع الأخلاق والدين ، ويرى محمود
 سالم محمد أن الجزار " أطلق لنفسه العنان فرمى صاحبه بالفاحشة والقيادة " (1) بعد أن رماه
 بالبخل في البيت الأول .

أما الوراق فنحا منحى سابقه ، حيث شكى في شعره ممدوحيه ، وسأعل نفسه القناعة
 ما دام غير قادر على الوصول إلى مراده (2) ومن ذلك قوله : (3)

مالي أذلُّ وللقناعة عِزَّة أنجو بها من ذلَّة وهوان
 وأصون وجهي أن يُذلَّ لأوجه منحوتة من عالم الصَّوان
 والقوم كالأصنام والإسلام نزهني عن الأصنام والأوثان

يحث الشاعر نفسه على صيانة ماء وجهه من أن يُذلَّ لأوجه منحوتة من عالم
 الصوان، والإسلام نزهه عن عبادة الأصنام والأوثان ، مشيراً بذلك إلى عدم التذلل لهؤلاء
 البخلاء وكأنه عبد لهم .

ولكنَّ الوراق يلقي اللوم على حظّه الضعيف حين لا يستطيع لوم البخلاء على حرمانه
 فيقول : (4)

يَمْنَعُنِي بِأَخْلٍ وَسَمَحٍ وَلَيْسَ لِي مِنْهُمَا نَصِيرُ
 وَعَايَتِي أَنْ أَلُومَ حَظِّي وَحَظِّي الْحَائِطُ الْقَصِيرُ

ويقول في المعنى نفسه : (5)

-
- (1) أدب الصنّاع وأرباب الحرف ، 123 .
 (2) ينظر : سلام ، محمد زغول ، الأدب في العصر المملوكي ، 155/2 .
 (3) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 234/1 .
 (4) العباسي ، إبراهيم ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، 154/1 .
 (5) العباسي ، إبراهيم ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، 155/1 .

الباءُ والخاءُ من بختي قد اقترنا
والباءُ والخاءُ من بختي قد اقترنا
لَتُ المسائلُ عن أسبابِ حرمانِي

فهو يقرن بخته مع بخل الناس ، ويسخر من هذا الاقتران بينهما الذي كان من أسباب

حرمانه .

ومن أجمل ما قاله الوراق في السخرية من البخل ، شعره في شخص دعاه إلى طعام

يحتوي على خضارٍ معروف باسم "رجلة" (1) حيث قال : (2)

وأحمق أضافنا ببقله
فمن أقل أدباً من سُقله
نسبةً بينهما و وصّله
قد مدّ في وجه الضيوفِ رجّله

التوريه واضحة في "رجله" ومغزاها بيان مدى بخل المُضيف وعدم احترامه

لضيوفه ، وقد أسبغ الشاعر هذا الوصف في جوٍ من السخرية والمرح والإضحاك ، خصوصاً

عندما بنى صلةً ونسباً بين هذا الأحمق البخيل وطعامه المحتقر الذي لم يعجب الشاعر .

أما البوصيري ، فقد أمعن في تصوير العاهات الأخلاقية التي كانت سائدة في عصره،

لا سيما البخل الذي مورس عليه من الأصدقاء والأعداء على حدّ سواء . (3)

ومن أطرف شعره سخريته من شيخ طغى عنده البخل على ما عداه من عيوب

وردائل ، حيث قال : (4)

إن جهلتم ما حلّ في ساحل الشيب
قالت البعلة التي أوقعتهُ
خ من الصّفح فاسألوا البحّارة
أنا ما لي على العُيون مرّارة

(1) الرّجّله : ضرب من الحمض ، وقوم يسمون البقلة الحمقاء الرّجّلة ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة رَجَل .

(2) الحموي ، ابن حجّة ، خزائن الأدب ، 246 .

(3) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 188 .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 99 .

وهنا يبدأ الشاعر ببناء حوارٍ لطيفٍ طريفٍ حدث بينه وبين بغلة الشيخ التي شكت
للشاعر تباريح بخل صاحبها وسوء معاملته وبخله (1) وجعل لبنة هذا البناء خالصة من
السخرية حيث يقول : (2)

قلتُ : ما تكْرهينَ فيه؟ فقالت :
أنا في البيتِ أَشْتَهِي كَفًّا تَبْنُ
أَيُّ بُخْلٍ فِيهِ وَأَيُّ قَتَّارَةٍ
وَمِنَ الْفُرْطِ أَشْتَهِي نُورَهُ
أما الحلي ، فيهجو بخيلاً وصل به البخل حدوداً خياليةً ، وقد بلغ الشاعر في
تصويرها مرتبة رفيعة ، حيث جاء بصورٍ فنيةٍ متناهية الغرابة ولكنها متناهية البساطة
والواقعية في آن واحد (3) يقول : (4)

لا يَعْرِفُ الْحَمَّامُ لِكَيْلَهُ
إِذَا رَأَى فِي قَدْرِهِ لِحْمَةً
يُجِلُّ أَنْ تُدْرِكَ رُغْفَائَهُ
بِالسَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالشَّمِّ قَدْ
فِي الْبَيْتِ يَحْمِي الْمَاءَ فِي
السَّمْسِ
تَلَا عَلَيْهَا آيَةَ الْكُرْسِيِّ
حَوَاسُ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْخَمْسِ
تُدْرِكُ دُونَ الدُّوقِ وَاللَّمْسِ

(1) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 189.

(2) البوصيري ، ديوانه ، 99.

(3) ينظر : نفسه ، 189.

(4) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 625.

ثلاث صورٍ أتى بها الشاعر للدلالة على مدى بخل مهجوّه ، ففي البيت الأول يصف لنا كيفية تسخين الرّجل للماء حيث يحميه في الشمس ، وفي البيت الثاني يظهر لنا مدى حرص هذا البخيل وتقتيره حيث يتلو آية الكرسي على قطعة لحم ليضمن حفظها ، وفي البيتين الأخيرين يؤكد لنا الشاعر عدم إدراك حاستي الذوق واللمس لرغفان هذا البخيل، وفي تلك الصور مبلغ السخرية من هذا البخيل وبخله اللامتناهي .

من خلال تتبعنا شعره لوجدنا أن للبخلاء فيه نصيباً من الهجاء والسخرية في أكثر من

موضع ، حيث قال في شحيح الزاد : (1)

وَبَخِيلٍ يَنَالُ مِنْ عَرَضِهِ النَّاسُ سٌ وَكَانَ رَغِيفُهُ لَا يُنَالُ
كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي بِحَرْفٍ رَغِيفٍ كَهَلَالٍ لَمْ يَدُنْ مِنْهُ كَمَالُ

فهذا البخيل لا يكثرث إذا ما نال الناس من عرضه شريطة عدم نوال رغيفه بل إنه يفضل أن يمسه الناس بعرضه على أن يمسهوا رغيفه ، ويسخر الحلي من بخله إذ لا يأتي بالرغيف كاملاً وإنما بقطعة صغيرة ، ليبين أن هذا البخيل بخيلٌ مقتنرٌ حتى على نفسه ، ثم يرسم الشاعر لنا صورة هذه القطعة من الخبز على سفرة هذا البخيل ، وهي صورة مضحكة،

حيث يقول : (2)

مُسْتَقَرٌّ فِي وَسْطِ سَفْرَتِهِ الزَّرُّ قَاءٍ لَا يَعْتَرِيهِ مِنْهُ زَوَالُ
فَتَعَجَّبُ مِنْ سَمَاءٍ بِأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ يَلُوحُ فِيهَا هِلَالُ

وله شعر طريف في رجلٍ بخيلٍ يُدعى ابن سنان ، وفيه يُجسّد رغيف الخبز ويحاوره

ليبين لنا من خلال هذا الحوار الخيالي مدى بخل مهجوّه ، وذلك في قوله : (3)

لَوْ تَرَانِي مِنْ فَوْقِ طُودٍ مِنَ الْجَوِّ عَ أَنَا جِي رَغِيفَ نَجْلِ سِنَانِ

(1) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 535.

(2) نفسه ، 536.

(3) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، ، 536.

كُلَّمَا قُمْتُ قَائِلًا : أُرْنِي وَجْهَ هَٰكَذَا نَادِي وَعَزَّتِي لَنْ تَرَانِي

أما ابن دانيال فَسَخِرَ من شخص يُدعى علي شير (1) مبيناً مدى بخله بقوله : (2)

إِذَا مَا كُنْتُ مَتَّخِوْمًا فَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ الْخُبْ
فَكُنْ ضَيْفَ عَلِي شِير زُ إِلَّا بِالْمَنَاشِيرِ

فالشاعر يحذر من زيارة وضيافة هذا المدعو علي شير إلا إذا كان المضاف متخوماً،

لأنه لا سبيل لأكل الطعام عنده . وقال يهجو : (3)

أَبَا بَلَّغِ الْمُصْفَرَّ عَنِّي وَإِنْ يَكُنْ أَحْسَّ الْوَرَى قَدْرًا لَدَيَّ وَأَحْقِرَا
تَبَاخَلْتُ حَتَّى صِرْتُ أَصْفَرَ مُنْتَنًا فَكُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُلْقَبَ ... (4)

يرى ابن دانيال أن تباخل هذا الرجل أدى إلى اصفراؤه ومنتته حتى صار جديراً أن

يلقب بالألقاب القبيحة المقززة .

أما ابن الوردي فكان يكره البخلاء كثيراً ويمقتهم كما هو بادٍ في شعره ، لذلك صَبَّ عليهم جامَ غَضَبِهِ فَهَجَاهُمْ وَسَخَرَ مِنْهُمْ وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ سَخَرِيَّتِهِ مِنْ بَخِيلٍ يَقَطِّعُ بِالْجُوعِ أَكْبَادَ ضَيْوْفِهِ ، إِذْ يَحْلَهُمْ عَلَى سَطْحِ دَارِهِ وَيَفْرِجُهُمْ نَجْمُ السَّمَاءِ ، يَقُولُ فِي ذَلِكَ : (5)

أَحَلَّ الضَّيُوفَ عَلَى سَطْحِهِ وَفَرَّجَهُمْ فِي نَجْمِ السَّمَا
وَقَطَّعَ بِالْجُوعِ أَكْبَادَهُمْ "وَإِنْ يَسْتَعْيِثُوا يَغَاثُوا بِمَا" (6)

وقال في بخل أهل العراق : (1)

(1) يبدو أن علي شير هو لقب لأحد أصحاب الشاعر ، ينظر حاشية المختار من شعر ابن دانيال للصفدي ، 134.

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 134.

(3) نفسه ، 246.

(4) لم يرد ذكر الكلمة في المختار من شعر ابن دانيال ، وتقديرها " الخرا " وبها يستوي المعنى والوزن .

(5) ابن الوردي ، ديوانه ، 284.

(6) اقتباس من الآية الكريمة : (عَبَسَ رَبِّي لَمَّا رَأَى الْإِنْسَانَ كَثُوبًا) ، الكهف ، آية 29.

وفي بغداد أقوام كرام
فما زادوا الصديق على سلام
ولكن بالسلام بلا طعام
لهذا سُميت دار السلام
وظف التراث والاسم لقضية مهمة في السخرية .

ولكنه في النهاية يحذر من البخل والحرص على المال بتشبيهه المال بالحياة التي إن لم

تقتلها تقتلك في قوله : (2)

أيها الباخل فيما قد ملك
فاحترس من حياة المال
أنت للمال وليس المال لك
بد أن تقتلها أو تقتلك
فلا

وبهذه الأبيات المليئة بالحكمة أختتم حديثي عن السخرية من البخل .

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 253 .

(2) نفسه ، 204 .

ثالثاً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْحَمَقِ وَالْتَقَلُّ :

الحمق والتقل صفتان مذمومتان ، لا يرغب المرء بأن تُنسبان إليه ولا يحب الاختلاط بأصحابها ، فالأولى تعني قلة العقل (1) وقليل العقل صعبٌ التفاهم معه ، حذارٍ من الاختلاط به ، يقول البوصيري في هذا المعنى : (2)

وَلَا تَثِقْ بِوَفَاءِ مَنْ أَحْيَى حُمُقٍ فَالْحُمُقُ دَاءٌ عَيَاءٌ بُرُوهُ عَسِرُ
ويوافقه الرأي في عدم مصاحبة الحمقى صفي الدين الحلّي ، الذي يرى أنّ مصاحبة اللبيب للأحمق قد تصيبه بالعدوى ، وقد تضر مصاحبة اللبيب للأحمق به ، ذلك لأن بينهما اختلافاً كبيراً ، فالجهل يتنافى والعقل ، يقول : (3)

إِذَا بُلِيَ اللَّيْبُ بِقُرْبِ قَدَمِ تَجَرَّعَ مِنْهُ كَاسَاتِ الْخُتُوفِ (4)
فَذُو الطَّبَعِ الْكَثِيفِ بَعِيرٌ قَصْدِ يُضِرُّ بِصَاحِبِ الطَّبَعِ اللَّطِيفِ
وَذَاكَ لِأَنَّ بَيْنَهُمَا إِخْتِلَافاً يُنَافِي الْعَقْلَ بِالْجَهْلِ الْعَنِيفِ
أما إذا أردنا تتبع السُّخْرِيَّةِ مِنَ الْحَمَقِ عند الشعراء فإن البهاء زهير صاحب الهجاء الرقيق والاتجاه التهكمي خير من يمثلها ، حيث إن الحمق كان من أكثر الصفات التي تثيره وتدفعه إلى الهجاء والسخرية (5) يقول في شخصٍ ضعيفٍ : (6)

مَا الْعَقْلُ إِلَّا زِينَةٌ سُبْحَانَ مَنْ أَخْلَاكَ مِنْهُ
فَسَمَّتْ عَلَى النَّاسِ الْعُقُوبُ لَوْ كَانَ أَمْرًا غَبَّتْ عَنْهُ
إن كان العقل غائباً عن المهجو ، لا يغيب علينا ما في هذه الأبيات من سخرية وتهكم

صاغها الشاعر بأسلوبه الفكاهة المضحك ، ويهجو شخصاً بلّغ به بقوله : (1)

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حَمُق .

(2) البوصيري ، ديوانه ، 119 .

(3) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 544 .

(4) القدم : هو الغليظ الأحمق ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قَدَم .

(5) ينظر : بدوي ، أحمد أحمد ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، 266 .

(6) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 361 .

وَذُو عَجَبٍ إِذَا حَدَّثَ
 وَمَا يَدْرِي بِحَمْدِ الْـ
 وَمَا أَبْصَرْتُ أَحْمَقَ مِنْـ
 وَأَحْمَقَ قَدْ شَقِيتُ بِهِ
 فَلَا يَنْفِكُ يَتَّبِعُنِي
 كَأَنِّي قَدْ قَاتَلْتُ لَهُ
 تَعَنَتْ عَنْهُ جِئَتْ بِالْعَجَبِ
 لَهُ- مَا شَعْبَانَ مِنْ رَجَبِ
 هُ فِي عُجْمٍ وَلَا عَرَبِ
 بِبِلَا عَقْلٍ وَلَا أَدَبِ
 وَإِنْ أَمَعَنْتُ فِي الْهَرَبِ
 قَتِيلًا فَهُوَ فِي طَلْبِي

يصف الشاعر لنا هذا الأحمق الذي لم يُبصر أحمق منه ، فهو لا يدري ، شعبان من رجب ، بُلي الشاعر به وعانى من قلة عقله وقلة أدبه ، وما يزعج الشاعر أن هذا الأحمق ثقيل أيضاً ، فهو يتبع الشاعر دائماً وإن أمعن في الهرب ، ويأتينا بصورة ساخرة لطيفة لموقف هروبه من هذا الثقيل إذ يصور نفسه قاتلاً وهذا الثقيل طالباً للثأر لقتيله الذي قتله

الشاعر ويتحدث عن ثقيل آخر بقوله : (2)

وَتَقِيلٌ كَأَنَّمَا
 لَيْسَ فِي النَّاسِ كُفْهُمُ
 لَوْ ذُكِرَتْ إِسْمُهُ عَلَيَّ
 مَلَأُ الْمَوْتَ قُرْبُهُ
 مَن تَرَاهُ يُحِبُّهُ
 مَاءٍ مَا سَاعَ شُرْبُهُ

أيُّ مقتٍ للثقلِ يفوق هذا المقت ، وأي سخريّة مهتم أشدُّ من هذه ، يبلغ الشاعر الدرجة القصوى في المغالاة والمبالغة حين يرى ملك الموت قرب هذا الثقيل للدلالة على كره الناس له ، ويبلغ مداه حتى يجعل الماء غير مستساغٍ شربه لو ذكر اسم هذا الثقيل عليه .

والبهاء كباقي الناس " فنحن نكره الثقل ، ولا نُحبُّ رؤيتهم ، ولا نرضى أن نكون منهم ، فيا ويل من كان ثقيلًا على الناس ! في كلامه .. في زيارته .. في أفعاله ! إنهم

(1) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 44 .

(2) نفسه ، 22 .

يكرهونه ... يتمنون انصرافه ... يمتلكهم الضيق عندما يرونه " (1) وما كان البهاء زهير في هذه الأبيات إلا لسان حال للناس كلهم.

ويصفه لنا في موضع آخر بقوله : (2)

رُبَّ ثَقِيلٍ لِبُغْضِ طَلْعَتِهِ أَخْشَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ أَجَلِي
وَكَلَّمَا قُلْتُ : لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

وبناءً على كره الشاعر لذاك الثقيل ، يُخلق صراع في داخله ، وتتولد تساؤلات عن

كيفية الخلاص منه ، يسوقها الشاعر في إطارٍ ساخرٍ طريف في قوله : (3)

كَيْفَ لِي مِنْكَ خَلاصٌ أَيْنَ لِي مِنْكَ سَبِيلٌ
حَارَ أَمْرِي فِيكَ حَتَّى لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ
أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلٌ أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلٌ

وهذه التساؤلات نابعة من نفسٍ تكره الثقل والثقل ، وأخيراً يصرح الشاعر لهذا

الثقل بعدما أعياه التلميح ، يقول : (4)

بَحَقِّ اللَّهِ مَتَّعَ نِي مِنْ وَجْهِكَ بِالْبُعْدِ
فَمَا أَشْوَقَنِي مِنْكَ إِلَى الْهَجْرَانِ وَالصَّدِّ
فَمَا تَصْلِحُ لِلْهَزْلِ وَلَا تَصْلِحُ لِلْجَبْدِ
وَمَاذَا فِيكَ مِنْ ثَقَلٍ وَمَاذَا فِيكَ مِنْ بَرْدِ
فَلَا صُبِّحْتَ بِالْخَيْرِ وَلَا مُسَّيْتَ بِالسَّعْدِ

أما ابن الوردي فيحذر من مصاحبة الثقل الغلاظ بقوله : (5)

فَلَنْ غَلِيظٌ غَلِيظٌ إِلَيْكَ عَنْهُ إِلَيْكَ
لَنْ قَضِيَتْ عَلَيْهِ لِيَقْضِيَنَّ عَلَيَّ

(1) سليم ، محمد ابراهيم ، البهاء زهير ، شاعر مصر في العصر الأيوبي ، 46.

(2) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 256.

(3) نفسه ، 274.

(4) نفسه ، 89.

(5) ابن الوردي ، ديوانه ، 277-278.

ولعلّ أجمل ما قيل في السخرية من الثقلاء ، ما قاله صفي الدين الحلبي في هجاء ثقيلٍ

جهم الوجه حيث يقول : (1)

وَإِذَا وَقَدَ شَفَعَ التَّقْطُبُ وَجْهَهُ وَطَحَا بِهَا مَرَحَ التَّكْبُرِ فَاثْتَى
يَبْدُو فَتَقْذِفُهُ النُّفُوسُ لِثِقَلِهِ فَتَرَاهُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ إِذَا دَنَا
فَطَفِقَتْ أَنْشِدُ إِذْ بَصُرْتُ بِحَمَقِهِ بَيْتاً جَعَلْتُ الشَّطْرَ مِنْهُ مُضْمَنًا
يَا ثِقَلَ صُورَتِهِ وَخَفَةَ رَأْسِهِ هَلَا نَقَلْتُ إِلَى هُنَا مِنْ هَاهُنَا

تكمّن السخرية من هذا الثقيل في عملية حيوية أتى بها الشاعر تتمثل في قذف النفوس

له لشدة ثقله ، وما أحلى الصورة ذات الأبعاد التي تصوره أبعد ما يكون إذا دنا .

ومن الجدير ذكره أن الشاعر ربط بين الثقل والحقق في أبياته وتمنى لو تعكس

الصورة لدى الثقيل الأحقق ، فتغدو صورته خفيفة الظل وعقله ثقيل ... ولكن هيهات ، وهما

صفتان كما قلنا سابقاً برؤهما صعب وعسير .

رابعاً : السخرية من الأنساب :

سلط بعض الشعراء سخريتهم لا على شكل المهجو ومظهره ، ولا على شخصيته ،

بل جعلوا سهام سخريتهم تصب على ادعاء بعضهم النسب الرفيع ، وهم حل منه .

وقد تكون السخرية بدافع ديني أو سياسي ، ونجد ذلك عند البوصيري الذي هجا بعض

الرّاع الذين عاثوا فساداً في زمانهم ، واصفاً سوء أخلاقهم وخبثهم وعميم أذيتهم ، والأهم

من ذلك كله أنه سخر من خسة أنسابهم (2) وكل تلك السخرية منهم كانت تابعة من غضبه

عليهم لأنهم عصوا أوامر السلطان - فيما يبدو - وتمردوا عليه يقول فيهم : (3)

عَصَتْ عَلَيْهِ أَنْاسٌ لَا خَلْقَ لَهُمْ الشُّؤْمُ شِيمَتُهُمُ وَاللُّؤْمُ وَالِدَبْرُ

(1) الحلبي ، صفي الدين ، ديوانه ، 532.

(2) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 240.

(3) البوصيري ، ديوانه ، 138-139.

تَلْتَمُّوا ثُمَّ قَالُوا إِنَّا عَرَبٌ فقلتُ لا عَرَبٌ أَنْتُمْ وَلَا حَضْرُ
وَلَا عَهْدَ لَكُمْ تُرْعَى وَلَا نِمَمٌ وَلَا بِيُوثُكُمْ شَعْرٌ وَلَا وَبَرٌ

فهو يرفض ادعاء هؤلاء المتمردين العصاة النسبة إلى العرب ، ويكمل سخريته منهم

بوصفهم بالأحجار والحفر في طريق الناس حيث يقول : (1)

يَشْكُو جَمِيعَ بَنِي الدُّنْيَا أَدِيَّتَهُمْ فَهَمْ بِطَرَقِهِمُ الأَحْجَارُ وَالْحُقُرُ
مِنْ لَوْمٍ أَحْسَابِهِمْ إِنْ شَاتَمُوا وَمِنْ حَقَارَتِهِمْ إِنْ قَاتَلُوا حَسِرُوا
رَبِحُوا

وفي البيت الثاني يسوق الشاعر لنا دليلاً على لؤم أحساب هؤلاء القوم وخسة أنسابهم،

فهم في حرب السباب والشتيمة يربحون وفي حرب السيوف يخسرون وذلك دليل على جبنهم

وخستهم .

ويسخر صفي الدين الحلي من علويّ شرير ، يدّعي النسبة إلى الإمام علي **Y** ،

فيقول فيه : (2)

قالَ النَّبِيُّ مَقَالَ صِدْقٍ لَمْ يَزَلْ يَجْرِي عَلَى الأَسْمَاعِ وَالْأَفْوَاهِ
مَنْ غَابَ عَنْكُمْ أَصْلُهُ ففِعَالُهُ تُنْبِيكُمُ عَنْ أَصْلِهِ المُنْتَاهِي
وَسَقَرَتَ عَنْ أفعالٍ سَوْءٍ أَصْبَحَتْ بَيْنَ الأَنامِ قَلِيلَةَ الأَشْبَاهِ
وَتَقُولُ إِنَّكَ مِنْ سُلالةِ حَيْدَرٍ أَفأنتَ أَصْدَقُ أم رَسولُ اللّهِ

يفنّد الشاعر دعوى هذا الرجل النسبة إلى سلالة علي **Y** ، ويجعل نفسه مُحامياً للدفاع

عن شرف هذا النسب الذي لا يجوز لأيّ كان الانتساب له وهو حِلٌّ منه ، ويجعل دليلاً

وبرهانه على كذب ادعاء هذا الرجل مقال صدقٍ للرسول **R** الذي يرى أن الأفعال تنبئ عن

أصل الإنسان ونسبه ، وأفعال هذا المهجو ليس لها شبيهة في قبحها وسوئها ، فكيف ينتمي

وينتسب ذو الأفعال الشائنة إلى سلالة عريقة كسلالة علي **Y** !؟

(1) نفسه ، 139-140 .

(2) الحلي ، صفي الدين ، **يوانه** ، 526 .

وفي موضع آخر يسخر الحلي من رجل يُدعى عيسى ليس له نسبٌ بقوله : (1)

سُمِّيتَ عيسى وَاَمْ تَظْفِرُ بِمُعْجَزَةٍ وَاَمْ تُشَابِهُهُ فِي عِلْمٍ وَلَا حَسَبِ
وَلَا أُتَيْتَ بِشَيْءٍ مِنْ فَضَائِلِهِ إِلَّا بِأَنَّكَ مِنْ أُمَّ بَغِيرِ أَبِ

لعنة هذا الملقوط أنه جاء إلى الدنيا بغير أب ، ولكن لعنةً أكبر أصابته حين سخر

الشاعر من عدم وجود نسبٍ ينتمي إليه مستخدماً اسمه وسيلةً للسخرية ، فهو لم يظفر بمعجزة

كمعجزة عيسى عليه السلام ، ولم يشابهه في العلم والحسب ، وليس فيه خصال كخصال سيدنا

عيسى ، وليس يجمعه به سوى الاسم وكونه من أمٍ بغير أب ... وحتى في هذه شتان بينهما .

خامساً : السخرية من التناقض في حياة الشخص :

السخرية من التناقض في حياة الشخص تتمثل في السخرية من الشخص نفسه ، إذا

كان في شكله قيمة تغاير جوهره الحقيقي (2) . فيقول ابن الوردي في هذا المعنى : (3)

لئن طَهَّرْتَ ثوباً دونَ قلبٍ فطَهَّرْ الثوبَ دونَ القلبِ حَيْضُ

ومن الشعراء الذين سخروا من التناقض في حياة الشخص ، البهاء زهير ، الذي

وصف طائفة من الناس بقوله : (4)

كَمْ أَناسٍ أَظْهَرُوا الزُّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنِ حَلالٍ وَحَرَامِ
قَالُوا الأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرَعاً وَاجْتِهَاداً فِي صِيامٍ وَقِيامِ
ثُمَّ لَمَّا أَمَكَّنَتْهُمُ فُرْصَةٌ أَكَلُوا أَكْلَ الحَزانِي فِي الظلامِ

يتحدث الشاعر عن أناس أخفوا ما في صدورهم ولبسوا ثوب النفاق ، فأظهروا الزهد

والورع واجتهدوا في أقوالهم وأفعالهم ، ولكن ذلك لم يكن من أخلاقهم في شيء ، ودليله أنهم

لمَّا أمكنتهم فرصة أكلوا في الظلام ليخفوا حقيقتهم عن الناس .

(1) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 530.

(2) بنظر : عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 106.

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 251.

(4) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 238.

وعلى ما يبدو فإن إظهار الورع وادّعاء التقوى كان يومئذٍ من الوسائل التي يتخذها الناس للوصول إلى آمالهم في الحياة الدنيا (1) متناسين الحياة الآخرة .

ولكن هذه الخدعة لم تتطل على الشاب الظريف الذي كشف زيف بعضهم وادعاءهم حيث يقول فيهم : (2)

وصالحين رأيت الخمر عندهم قد حللوه بلا خوف ولا حذر
فهو يتحدث عمّن ينسبون أنفسهم إلى الصلاح ويدّعون التقوى ، ولكنهم يحلون الخمر بلا خوفٍ ولا حذرٍ وهذا يتنافى مع ما سبق .

أما ابن دانيال فيمحور السخرية حول نفسه ، إذ يجعل من شخصيته نموذجاً لمن يدّعي التدين ، ويخفي حقيقته خلف ستار التقوى ، فيكون ظاهرهم متنافياً مع جوهرهم ، يقول : (3)

ولما صيرت بين الناس أحي تعلّمتُ الفجورَ مع المحال
أدورُ على بيوت القُحْبِ ليلاً وأنهقُ كالحمير وكالبغال
فمن المعروف أن اللحية دليل على الورع والتقوى إن أطلقها المرء . ولكنها هنا ستارٌ اتخذهُ الشاعر لإخفاء أفعاله المشينة القذرة التي يمارسها ليلاً .

ويهجو الخياط الدمشقي شخصاً يدّعي الحسن ساخراً من كذب ادعائه مبيّناً التناقض في شخصيته ، حيث يقول : (4)

كم تظهر الحسن البديع وتدّعي وبياضُ وجهك في النواظرِ مُظلمُ

(1) ينظر : بدوي ، أحمد أحمد ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، 283 .

(2) الشاب الظريف ، ديوانه ، 166 .

(3) حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 193 .

(4) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 302/4 .

ويحدثنا ابن دقيق العيد عن رجل يظنه الناس عالماً فاضلاً ، فأكرموه بما يرتضي ،

فيسخر الشاعر من ذلك مبيناً كذب ادعائه ويسخر من تعارض المانع والمقتضي بقوله : (1)

قالوا فلان عالم فاضلٌ فأكرموه مثلما يرتضي
فقلت لِمَ لم يكن ذا تقىً تعارض المانع والمقتضي

سادساً : السُّخْرِيَّةُ من إخلاف الوعد :

إخلاف الوعد خلق سيء عدّه الإسلام علامة من علامات النفاق ، لذلك لم يتهاون

الشعراء مع أصحاب هذه الخلق ، بل انبروا في تتبع أصحابه وكشف موافقهم . (2)

وما أصعبَ إخلاف الوعد ، وتخيب الظن حين يكون من الأصدقاء ، الذين تُرتجى

منهم النصرة ، وهذا ما حَدَّثَ مع صفي الدين الحلبي الذي وعده صديق بنصرته في واقعة له

وأخلف ، يقول : (3)

وَعَدتَ جَمِيلاً وَأَخْلَفْتَهُ وَذَلِكُ بِالْحُرِّ لَا يَجْمُلُ
وَقُلْتَ بِأَنَّكَ لِي نَاصِرٌ إِذَا قَابَلَ الْجَحْفَلَ الْجَحْفَلُ
وَكَمْ قَدْ نَصَرْتُكَ فِي مَعْرَكٍ تَحَطَّمُ فِيهِ الْقَنَا الذُّبُلُ (4)

فالشاعر يُنكر على صديقه عدم الوفاء بالوعد ، وهو الذي نصره في معركة له ،

ويخبره أن صفة إخلاف الوعد غير مُسْتَحَبَّةٍ في الرجل الحر .

ثم يقول له بأن قدر الرجال يُعرَف من خلال صفاتهم ، فلا يتساوى الذي يقول ولا

يفعل مع الذي يفعل ما يقول ، ويضرب له مثلاً قصّةً غايةً في الجمال عن حوارٍ جرى بين

(1) الحنبلي ، ابن عماد ، شذرات الذهب ، 13/8 . والصفدي ، الوافي بالوفيات ، 199/4 .

(2) بنظر : عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 107 .

(3) الحلبي ، صفي الدين ، ديوانه ، 40 .

(4) القنا الذابل : الرمح الدقيق اللاصق ، والجمع ذُبُل ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذُبُل .

لببلٍ وصقرٍ، يُنطق فيها كلُّ منهما ، ويسوق على لسان الصقر الحكمة مبطنةً بالسخرية ممن

يقولون ما لا يفعلون ، ويعدون ويخفون وعودهم ، يقول : (1)

ل فَتَعْلَمُ أَيُّهُمُ الْأَكْمَلُ	بِذَا يَتَفَاوَتْ قَدْرُ الرَّجَا
بِهِ حِينَ فَاخِرَهُ الْبَابِلُ	كَمَا قَالَهُ الصَّقْرُ فِي عِزَّةٍ
وَمِنْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ تُحْمَلُ	وَقَالَ : أَرَاكَ جَلِيْسَ
	الْمَلِكِ
وَعَنْ بَعْضِ مَا قُلْتُهُ تَتَكَلَّمُ ⁽²⁾	وَأَنْتَ كَمَا عَلِمُوا أَخْرَسُ
وَقَدْرِي عِنْدَهُمْ مُهْمَلُ	وَأَحْبَسُ مَعَ أَنْتِي نَاطِقُ
بِذَلِكَ دَرَوْا أَنْتِي الْأَفْضَلُ	فَقَالَ صَدَقْتَ وَلَكِنَّهُمْ
وَأَنْتَ تَقُولُ وَلَا تَفْعَلُ	لَأَنْتِي فَعَلْتُ وَمَا قُلْتُ قَطُّ

وقال كذلك في هجاء شخص ماطل الوعد ساخرًا منه : (3)

وَضَاعَ وَقْتِي بَيْنَ الْعُذْرِ وَالْعَدْلِ	لَمَّا تَطَاوَلَ بِي إِفْرَاطُ مَطْلِكَ لِي
لِقَوْلِهِ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ⁽⁴⁾	أَيَقْنَتُ أَنْكَ لَسْتَ إِنْسَانًا لِفِعْلِكَ

ينفي الشاعر صفة الإنسانية والانتماء للبشر عن ماطل الوعد ، مستعيناً بالآي القرآني

لبرهنة كلامه وهذا مبلغ السخرية من ماطل الوعد ومخلفه بأنه لا يُعَدُّ إنساناً .

أما ابن الظهير الإربلي ، فأتى على الحديث عن إخلاف الوعد من خلال حديثه عن

صديقين له أخلافاه الوعد وكذبا عليه ، فسخر منهما ومن مواعيدهما بقوله : (5)

أَكْذَبُ مِنْ لَامِعِ السَّرَابِ	مَوَاعِدِ الْفَخْرِ وَالشَّهَابِ
فَكَانَ نَقْبًا عَلَى خَرَابِ	أَحْسَنْتَ بِالسَّيْدِينَ ظَنًّا
إِذْ كُنْتَ غَرًّا عَلَى التَّرَابِ	كَمْ أَحْلَفَانِي فُخْلَفَانِي

(1) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 41 .

(2) نكل ينكل عما قاله نكص وجبن ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نكل .

(3) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 529 .

(4) تشير إلى الآية الكريمة : " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ " ، الإسرائ ، آية 11 .

(5) الإربلي ، ابن الظهير ، ديوانه ، 29 .

يتحسر الشاعر على إحسانه الظن بهذين السيدين لأن مواعيدهما أكذب من لامع

السراب ، ولذلك ينفي الشاعر عنهما صفة الأصحاب ويتحرر من هذه الصداقة ، بقوله : (1)

راغا وزاغا وليس هذا الـ خداع من شيمة الأصحاب (2)

(1) نفسه ، 29.

(2) راغ خادع ، وراوغة خادعه ، وزاغ عن الطريق عدل عنه ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة رَوَّغ ، ومادة زَوَّغ.

سابعاً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ مَفَاسِدِ إِجْتِمَاعِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ أُخْرَى :

تحدّث الشعراء في هذا العصر عن المفاصد الاجتماعية والأخلاقية وشيوع الفساد ، وتدني الأخلاق ، بأسلوبٍ فيه كثير من التّفنّيّةِ وشيء من السُّخْرِيَّةِ المبطّنة ، ممزوجةً أحياناً بالمرارة والألم الواضحين . (1)

ومن المفاصد الأخلاقية التي شاعت في العصر ، الشذوذ ، فقد اتّخذ الشعراء منه مادة

للسخرية والتهمك (2) ومن ذلك سخرية الوراق من رجلٍ فتنه حبّ العبيد إذ يقول : (3)

ماكنتُ أعرفُ في فلان حالةً تدعو لحبّ الأسود الغريب (4)
حتّى رأيتُ محلّ سَعْدٍ فرأيتُ كلَّ غريبةٍ وغريب
عُنْدَهُ ومقّطباً لي غاية التّقطيب
ورأيته فرحاً به في غاية

يفضح الشاعر أمر هذا الشاذ المفتون بحب العبيد بلغةٍ ساخرةٍ تهكمية ، سرعان ما

يصيب الشاعر بها نفسه ، ساخراً من كونه برغم بياض لونه في خلعٍ مشيب ، مبرراً لذلك

الرجل حبه للعبد الأسود إذ لا يزال صغيراً يافعاً ، يقول : (5)

أوليسَ سعدُ أسوداً غَضَّ الصَّبَا أولستُ أبيضُ في خلعٍ مَشِيب

ويتحدث ابن نباتة المصري عن هذه المفسدة الأخلاقية المتمثلة باللواط والشذوذ ،

مضمناً من بيت جرير (1) الذي يُعدُّ أمدح بيتٍ ليبيدّ عنه هذه الهالة ، من خلال إعادة بعثه في

إطارٍ من السخرية وجوّ من التهمك قتلٍ فيه روح المديح .

وذلك بقوله : (2)

(1) ينظر : أمين ، بكرى الشيخ ، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، 146 .

(2) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 240 .

(3) الكتبي ، ابن شاکر ، فوات الوفيات ، 143/3 .

(4) الغريب : شديد السواد ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة غَرَب .

(5) الكتبي ، ابن شاکر ، فوات الوفيات ، 143/3 .

أَقُولُ لِمَعِشِرِ جُلُدُوا وَلَا طُوا وَبِأَثْوَا عَاكِفِينَ عَلَى الْمَلَا ح
لَأَنْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَا يَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَا ح

فهو يتهكّم منهم مستخدماً (المدح في معرض الاستهزاء) (3) حيث يسخر من هؤلاء

القوم الذين عكفوا على الملاح ، ولاطوا رغم أنهم جلدوا ، وأصروا على معصيتهم ، فوارى
بقوله "خير من ركب المطايا " لأنهم أصروا على ركوب المعصية .

كما تحدّث الشعراء عن تعاطي الحشيشة ، ووصفوها ساخرين ممن يتعاطاها لأنه لا

يُصِيبُهُ مِنْهَا إِلَّا الْمَرَضُ وَالْإِعْيَاءُ ، يَقُولُ الشَّابُّ الظَّرِيفُ فِي ذَلِكَ . (4)

مَا لِلْحَشِيشَةِ فَضْلٌ عِنْدَ أَكْلِهَا لَكِنَّهُ غَيْرُ مَصْرُوفٍ إِلَى رُشْدِهِ
صَفْرَاءُ فِي وَجْهِهِ خَضْرَاءُ فِي حَمْرَاءُ فِي عَيْنِهِ سَوْدَاءُ فِي كَبِدِهِ
فَمِنْهُ

وفي مَوْضع آخر يسخر ممن يشربها وحاله بعد شربها ، إذ يصبح كالفرخ الملقى على

الأرض منتوف الريش مقتولاً من السكر ، يقول : (5)

هَذَا الْفَقِيرُ الَّذِي تَرَاهُ كَالْفَرَخِ مُلْقَى بَعِيرِ رِيشِ
قَدْ قَتَلْتَهُ الْحَشِيشُ سُكْرًا وَالْقَتْلُ مِنْ عَادَةِ الْحَشِيشِ

ويذكر ابن دانيال الاصفرار والانسطال اللذين ينتجان عن تعاطي الحشيش ، ولكن في

معرض حديثه عن محبوبه الذي أدمنها ، مبرراً له تعاطيه الحشيش على اعتبار أنه غزال ،

يقول: (6)

حَبِّي مَا عَابَهُ أَصْفَرَارُ كَلًّا وَلَا شَانَهُ انْسَطَالُ
وَمَا أَرْتَعَى الْحَشِيشُ إِلَّا لَتَعْلَمُوا أَنَّهُ غَزَالُ

(1) جرير ، ديوانه ، 85. أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَا يَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَا ح

(2) ابن نباتة ، ديوانه ، 120 .

(3) ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، 568 .

(4) الشاب الظريف ، ديوانه ، 144-145 .

(5) نفسه ، 190 .

(6) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 228-229 .

ويبدو أن هذا الداء قد انتشر في مجتمعات النساء ، ولعل ابن الوردي يثبت ذلك

بقوله: (1)

مليحة مسطولة إن لمثها فيما جرى
تقول كل ظبية ترعى الحشيش الأخضر

ينفق ابن الوردي مع ابن دانيال من حيث اعتبار من يتعاطى الحشيش كالغزلان

والظباء، إذا كان الحديث عن الأحبة والملاح ولكنه لم ينف عن هذه المليحة التي يتحدث عنها
انسطالها وغياب ذهنها ساخرًا من حالتها .

وقد سخر بعض الشعراء من السرقة ، يقول شمس الدين بن الصائغ : (2)

من يكن في الأصل لصاً لم يكن قط أميناً
فثقوا منه برهن أو خذوا منه يميناً
أي اقطعوا يده اليمين .

أما الحلّي فيصفُ سارقاً بارعاً ، ولكنه يقلُّ براعةً عن الشاعر الذي استطاع النفاذ إلى

مستودع السرّ ، حيث تتكون الحقائق وتنسج الهيئات والعناصر (3) يقول : (4)

لو عاينت مقلته دُخنة لاسترقّ اللبّ من القشر (5)
ولو فلاحها بعده ناكداً لم يرَ فيها أثر الكسر
يكاد أن يسرق طيباً من راقِدِ الليل ولا يدري
الكبرى أن يسرق السكر من
هكذا ولو شاء غدا ممكناً الخمر

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 413 ، 473 .

(2) بردي ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، 196/8 .

(3) بنظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 191 .

(4) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 645 .

(5) الدُخْن : هو حبّ الجاورس واحدته دُخنة ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة دُخَن .

وَيُعَلِّقُ يَاسِينَ الْأَيُّوبِيَّ عَلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ بِقَوْلِهِ : " لَمْ يَعِدِ الْحَدِيثُ عَنْ سُرْقَةِ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَوَائِجِ وَحُلَى وَمَمْتَلِكَاتٍ ، بَلْ اتَّجَهَ إِلَى أَبْعَادٍ جَدِيدَةٍ ، إِلَى سُرْقَةِ الْمَشَاعِرِ وَالْخَوَاطِرِ ، وَإِلَى الطَّيِّبِ وَالنَّشْوَةِ ، وَكُلِّهَا مِنْ جَلِيلِ اللَّطَافِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ " . (1)

لَا يَسْخَرُ الْحَلِيَّ مِنَ السَّرْقَةِ فَحَسَبَ ، بَلْ يَسْخَرُ مِنَ الْكُذْبِ ، يَقُولُ فِي كَذَابِ كَانَ يَظُنُّهُ صَدِيقًا فَخَابَ ظَنُّهُ لِأَنَّ الصَّدِيقَ صَدُوقٌ ، يَقُولُ : (2)

لِي صَدِيقٌ لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ فِي الْقَوْلِ
لَمْ يَلِ الصِّدْقَ إِلَّا الصَّدُوقُ
لَيْسَ فِيهِ تَصَوُّرٌ يُدْرِكُ الْعِلْمَ
مَ وَلَا لِي إِنْ قَلْتُهُ تَصَدِيقُ
وَقَالَ أَيْضًا : (3)

تُلْقَى كِذْبًا ثُمَّ تَأْتِي بِضِدِّهِ
إِذَا سَأَلُوا تَكَرَّرَ مَا كُنْتَ حَاكِيَا
فَإِنْ كُنْتَ قَوْلًا فَإِنَّكَ كَاذِبٌ
وَإِنْ كُنْتَ كَذَابًا فَلَا تَكُ نَاسِيَا
فَهُوَ يَسْخَرُ مِنْ هَذَا الْكُذَابِ الَّذِي يَلْفِقُ الْأَكَاذِيبَ ، وَحِينَ يُسْأَلُ تَكَرَّرَ مَا قَالَهُ يَكْذِبُ مَرَّةً أُخْرَى لِأَنَّهُ نَسِيَ كُذْبَتَهُ الْأُولَى ، وَيُنصِّحُهُ سَاخِرًا بِأَنْ يَبْقَى عَلَى ذَاكِرَتِهِ وَأَنْ يَحَاوِلَ عَدَمَ النِّسْيَانِ لِأَنَّ اجْتِمَاعَ الْكُذْبِ وَالنِّسْيَانِ يَثْبُتُ أَنَّهُ كَذَابٌ .

وَيَسْخَرُ الْوَرَّاقَ مِنَ الْكُذْبِ ، فَيَقُولُ فِي مُتَمَارِضِ كُذَابِ (4)

مُتَمَارِضٌ جَعَلَ التَّغْيَا
شَيْ مِنْ خَبَائِثِهِ سَبَبُ
وَيَقُولُ : مَا أَنَا طَيِّبٌ
صَدَقَ اللَّعِينُ وَمَا كَذِبٌ

(1) صفى الدين الحلبي ، 199 .

(2) الحلبي ، صفى الدين ، ديوانه ، 645 .

(3) نفسه ، 529 .

(4) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 264/1 .

يستتبط الوراق دليله من الكذاب نفسه الذي يدّعي المرض ويقول بأنه غير طيب ،
فيحوّر في المعنى ويواري لي جعل قصده الخبث وعدم الطيبة ، ويبرهن أنه كذب في ادعاء
المرض ولكنه صدق وما كذب في قوله : ما أنا طيب .

الفصل الثالث

السُّخرية من فئات اجتماعية مختلفة في الشعر

- أولاً : السُّخرية من المرأة .
- ثانياً : السُّخرية من المغنيين والمغنيات .
- ثالثاً : السُّخرية من الخدم والجواري .
- رابعاً : السُّخرية من الأدب والأدباء .
- خامساً : السُّخرية من أهل العلم والفضائل .
- سادساً : السُّخرية من الحرف والحرفيين .
- سابعاً : السُّخرية من مواقف مختلفة .

الفصل الثالث : السُّخرية من فئات اجتماعية مختلفة في الشعر أولاً : السُّخرية من المرأة :

يقول فوزي محمد أمين : " الواقع أننا لا نرى في الأدب من حياة المرأة المنزلية إلا الجانب السيء ، وكأن السُّخَط وحده هو الذي يحرك قرائح الشعراء " . (1)

وقد صَوَّر الشعراء النساء صوراً ساخرةً ، ولا ريب أنهم استمدوا هذه الصورة من واقع مجتمعهم ثم أضافوا عليها من روحهم الفكهة ، وحسَّهم الشعبي ، مما جعل لها هذه الحيوية وهذا النبض الذي جعلها تشع بالحياة وجعلنا نشعر كأنها تعيش بيننا . (2)

وهذه النظرة الساخرة نجدها في شعر الجزار الذي سَخِر من زوجة أبيه ، وصوَّرها أقبح تصوير واصفاً هرمها مُبيناً ضعف عقلها وقبح وجهها بقوله : (3)

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةَ	لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذَهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتَهَا فِي	مَا جَسَرَتْ تَبَصَّرَهَا الْجَنُّ
الذُّجَى	
كَأَنَّهَا فِي فَرَشِهَا رَمَّةٌ	وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنٌ ⁽⁴⁾
وَقَائِلٌ قَالَ : فَمَا سِنَّهَا	فَقُلْتُ : مَا فِي فَمِهَا سِنَّ ⁽⁴⁾

لقد جعل الجزار من هذه المرأة الهيئة المثالية للقبح والشيخوخة ، ونسج منها خيوطاً مشهدهً مسرحي ساخر ، معتمداً على النقاوت الخيالي والتصوير اللطيف اللامساوي ، فكان هذا الشعر الهجائي العابث . (5)

(1) المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 199 .

(2) ينظر : نفسه ، 302 .

(3) الكتبي ، ابن شاکر ، فوات الوفیات ، 292/4 . و ابن كثير ، البداية والنهاية ، 293/13 . واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، 64/4 .

(4) الرِّمَّة : قطعة من الحبل بالية ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة رَمَمَ .

(5) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 185 .

وفي أبياتٍ أُخرى له يتهم زوجة أبيه بقتل أبيه ، والعجيب أن يوصي لها والده

بالصدّاق وهي قاتلته ، يقول : (1)

أذابتُ كلّي الشيخ تلك العجوز
وقد كان أوصى لها بالصدّاق
لأني ما خلتُ أن القتيلَ
وأردته أنفاسها المردية
فما في مصيبته تعزية
يوصي لقاتله بالدية

تكنم السّخريّة لا في اتهام الجزار لزوجة أبيه بقتله ، بل بطريقة القتل ، حيث كان سلاحها في هذه الجريمة أنفاسها المميّنة ذات الرائحة النتنة الكريهة ، ويرى الشاعر أن مصيبة والده ليس لها عزاء ، لأنه أوصى لقاتلته بالصدّاق متهمّاً من غرابية كون القاتل موصى له بالدية وليس مطالباً بها .

ويرى ياسين الأيوبي أن الجزار قد عدل هنا عن الدعابة الخالصة والفكاهة الفنيّة الراقية ، إلى نوع جمّع ذلك إلى حقدٍ دفين ، واحتقارٍ لسخف الأقدار التي تجعل من المرذول المُعتل يفوز بالحياة والبقاء . (2)

أما البوصيري ، فيشكو من زوجته ساخرًا منها ، راويًا قصّته معها ، سارداً لأحداثها بأسلوبٍ فكّه مضحك ، ويبدأ هذه القصة بالحديث عن مُجريات الحوار الذي دار بين امرأته وأختها وكيف حرّضتها الأخيرة على زوجها ، حيث يقول : (3)

ويومَ زارت أمهم أختها
وأقبلت تشكو لها حالها
والأخت في الغيرة كالضرة
وصبرها معي على العشرة

(1) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 292/4 .

(2) ينظر : آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 378 .

(3) البوصيري ، ديوانه ، 111-112 .

قالت لها كيف تكون النساء كذا مع الأزواج يا غيرة⁽¹⁾

وكاننا أمام مشهد مسرحي نابض بالحياة والواقعية ، يسوق فيه الشاعر بكل براعة

السخرية من زوجته على لسان أختها التي تذفها بالشتائم وتنعتها بالغيرة الغافلة ، ثم يكمل هذا

الحوار بين الأختين بقوله :⁽²⁾

قومي اطلبي حَقَّكِ منه بلا
قالت لها : ما عادتِي هكذا
أخافُ إنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً
تَخَلَّفِ مِنْكَ وَلَا فِتْرَةَ
فإنَّ زَوْجِي عنده ضَجْرَةٌ
طَلَّقَتِي قالت لها بَعْرَةٌ⁽³⁾

تشتم الأخت أختها لأنها خائفة من زوجها ، وتظلُّ تهونُ قدره في نفسها ، وتحرضها

على المطالبة بحقها ، فتأنيه الزوجة ممثلة بمشاعر السخط والغضب ، وتضربه على رأسه

يقول في ذلك :⁽⁴⁾

وهَوَّنتُ قَدْرِي في نَفْسِهَا
فجاءتِ الزَّوْجَةَ مُحْتَرَّةً⁽⁵⁾
فَقَاتَلتني ، فَهَدَدتْهَا
فاسْتَقْبَلتُ رَأْسِي بِأَجْرِهِ

نقلةً نوعية من السخرية من زوجته إلى السخرية من نفسه ، إذ يروي كيف ضربته

زوجته رغم تهديده لها ، غير آبه في إطلاق السخرية من نفسه وتأليف النكات المضحكة

والقصص الهزلية التي تدور حول علاقته الشخصية مع زوجته .

ويعرض البوصيري لهذه الزوجة صورة أخرى ، ساخرًا من مظهرها وضعفها

وهرمها مُتَعَجِّباً من قوة رحمها وصباه يقول في ذلك :⁽⁶⁾

بَلَعَتْ مِنَ العُمَرِ العَيْيِ وَنُكِّسَتْ
فِي الخَلْقِ وَهِيَ صَبِيَّةُ الأَرْحَامِ

(1) يا غيرة : يا غافلة ، والغيرة البُله الذين لم يجربوا الأمور ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة غَرَر .

(2) البوصيري ، ديوانه ، 112 .

(3) البعرة : واحد البعر ، وهو ربيع الخف والظلف من الإبل والشاة والبقر ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بَعَر .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 112 .

(5) مُحْتَرَّةٌ : محرورة ، غضبي ، وهي من الحرّ بمعنى الوجد والغبط ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة حَرَر .

(6) البوصيري ، ديوانه ، 243 .

إِنْ زُرُّهَا فِي الْعَامِ يَوْمًا أَنْتَجَبْتُ وَأَتَيْتُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ بَعْلَامِ
وإن كان البوصيري قد ضاق بهذه الزوجة المشاكسة الولود ، فإن ابن دانيال هو

الآخر قد ضاق بزوجته الذميمة النكدة ، يقول فيها : (1)

زوجهة في النَّقَارِ دَيْكٌ وَلَكِنْ لَهَا فِي النِّسَاءِ صُورَةٌ قَرْدٌ
أيُّ زوجهة هذه التي تكون في قوّة خصامها ونقارها كالديك وفي صورتها كالقرد؟!
يبدو أن ابن دانيال كان ماقنّاً كارهاً لهذه الزوجة وإلا لما وصفها بهذه الأوصاف ولما سخر
منها هذه السخرية القاسية الجارحة .

وهذه النظرة الساخرة للمرأة نجدها في شعر القيراطي ، ولكن بشكلٍ مختلفٍ عن
سابقه ، إذ يتهمّ بامرأةٍ تعملُ بالوعظ ، ويسخر منها ، وكأنّه لا يرى في مجالِ الوعظ مكاناً
للنساء ، وقرأ له هذه الأبيات ولا يغرّنك منها الإطار الغزلي الذي جعله القيراطي حجاباً على
سخريته (2) ، يقول : (3)

وعالمةٍ تُفتي بِقَتْلِ مُحِبِّهَا وتَجْهَرُ أَنِّي فِي هَوَاهَا أَعْدَبُ
وتعضبُ إن جاءت عليّ ببصرها كما أنّها تجني عليّ وأغضبُ
إذا وعظت قامت ملاحاةً وجهها على منبر الأعطاف تدعو
وتخطُّبُ

" وما أغربها من واعظةٍ تلك التي يقوم جمالها مقامَ عملها ، ويقوم محبوبها مقام

طالبها الإفادة " . (4)

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 237 .

(2) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 298 .

(3) القيراطي ، بيوانه ، 88 .

(4) أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ،

ولكنّ سوء الظن بالنساء عند القيراطي يبلغ مداه في أبيات أخرى ، بحيث يراهن جميعاً ناكراتٍ للنعمة ناقماتٍ لا يُرضيهنّ شيء ، فهنّ في حال الغضب والرّضى سواء ، في كلتا الحالتين هُنّ سخطٌ مسلطٌ على الرجال ، يقول : (1)

وعيشك لا يرضي النساءَ معيشةً ولو أنها من جنة الخلد تُجلبُ
تُشاهدُها في حالة الغيظ مهلكاً وحال الرّضى لم يكفها منك مطلبُ
أما الوراق فيصوّر لنا كره بعض الناس للبنات ، ويجعل من نفسه مثلاً لذلك ، يقول بأسلوبه الساخر الفكاهة : (2)

رُزقتُ بنتاً ليتها لم تكن في ليلةٍ كالدَّهرِ قضيتها
فَقِيلَ ما سميتها؟ قلتُ : لو مكنتُ منها كنتُ سميتها
يتلاعب الشاعر بكلمة سميتها يريد سممتها ، مُعلناً استيائه وموقفه من انجاب هذه البنت التي كانت ليلةً إنجابها كالدَّهر ، ويعيد الكرة في الحديث عن كرهه للبنات ، ولكن الآن حين يرزق ابنه بالبنت الرابعة ، حيث يقول : (3)

كملت لإبني بناتٍ أربع والتي جاءت تمام الخاتمة
قال : قد سميتها رابعة قلتُ إياك وأخرى طارمة
ولكن أشد الشعراء سخريّة من المرأة هو صفي الدين الحلّي الذي يُعمّم سخريته من النساءِ بعدهنّ ناقصات عقلٍ وحظٍّ ودينٍ مستغلاً ثقافته الدينية في برهنة ذلك ، داعياً إلى عدم إطماعهن وإلا ستكون النتيجة ندماً أبدياً ، يقول : (4)

توقوا النساءَ فإنّ النساءَ نقصنَ حظوظاً وعقلاً وديناً

(1) القيراطي ، ديوانه ، 303.

(2) الصفي ، فضّ الختام عن التورية والاستخدام ، 214.

(3) الصفي ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، 265/1.

(4) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 544.

وَكُلُّ بِهِ جَاءَ نَصُّ الْكِتَابِ
فَأَمَّا الدَّلِيلُ لِنَقْصِ الحُظُوظِ
وَنَقْصِ العُقُولِ فَأَجْرَاوَهُنَّ
وَحَسْبُكَ مِنْ نَقْصِ أَدْيَانِهِنَّ
فَوَاتِ الصَّلَاةِ وَتَرْكِ الصِّيَامِ
فَلَا تُطْمَعُوهُنَّ يَوْمًا فَقَدْ
وَأَوْضَحَ فِيهِ دَلِيلًا مُبِينًا
فَارِثُهُمْ نِصْفُ إرْثِ البَنِينَا
بِنِصْفِ الشَّهَادَةِ فِي الشَّاهِدِينَا
مَا لَسْتَ تَزْدَادُ فِيهِ يَقِينَا
فِي مُدَّةِ الحَيَاضِ حِينَا فَحِينَا
تَكُونُ النَّدَامَةُ مِنْهُ سِينِينَا

أما البهاء زهير ، فيسخر من امرأة تتصاىبى رغم هرمها وكبر سنّها ، فقال

يهجوها: (1)

وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي النِّقَا
وَسَأَلْتُ عَمَّا تَحْتَهُ
بِ وَذَاكَ عَنَوَانُ الْكِتَابِ
قَالُوا عِظَامٌ فِي جِرَابِ

يصف الشاعر هذه المرأة وصفاً طريفاً حين يشبهها بعظام في جراب للدلالة على هرم

سنّها ، ولكنه لا يكتفي بهذا القدر من السخرية والإهانة ، فيكمل قائلاً : (2)

فَإِذَا عَدَدْتُكَ فِي الْكِلَابِ
يُهِينُهَا وَيَحِطُّ مِنْ قَدْرِهَا وَيَجْعَلُهَا فِي الحَضِيضِ حِينِ يَفْضُلُ الْكِلَابِ عَلَيْهَا وَيَرْفُضُ
بِ حَطَّطْتُ مِنْ قَدْرِ الْكِلَابِ

نسبتهما إليها حتى لا يحطّ من قدرهم .

(1) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 31 .

(2) نفسه ، 32 .

ثانياً : السُّخْرِيَّة من المغنين والمغنيات :

ربط الشعراء بين الصوت والصورة ، أي صوت المغنية وصورتها ، مؤكدين على ضرورة الانسجام بينهما ، فكأنهم جعلوا شرط الجمال بوجود الصوت والصورة معاً ، وأن الجمال وحدة لا تتجزأ . (1)

ومن هذا المنطلق سخر بعض الشعراء من المغنيات اللاتي يتوافر لديهن الصوت الجميل ، ولكنهن قبيحات ، يقول ابن الوردي في مغنية حسنة الحلق قبيحة الخلق . (2)

بِاللَّهِ إِنَّ غَيْبَتَهُمْ فَتَبْرَقَعِي يَا نَزْهَةَ الْأَسْمَاعِ لَا الْأَبْصَارِ
غَيْبَتِ سَافِرَةٌ لَهُمْ فَقَلُوبُهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَيُونُهُمْ فِي نَارِ

قلوبٌ في الجنة ، وعيون في النار ، كان وقع هذه المغنية على المستمعين لها والناظرين لوجهها ، لذلك يرجوها الشاعر أن تتبرقع عند الغناء حتى يستمتعوا بصوتها دون المعاناة والعذاب من جراء رؤية وجهها القبيح .

أما الحلّي ، فيسخر من مغنية قبيحة الصوت ولكن ضربها أي عَزَفها جميل ، ويرى أنها حَوّت ضدين في أحدهما أساءت للناس وفي الثاني سرّتهم ، يقول : (3)

حَوّتْ ضِدَيْنِ إِذَا ضَرَبْتِ وَعَنْتِ فَقَدْ سَاءَتْ وَسُرَّتْ مَنْ رَأَاهَا
غِنَاءٌ تَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ ضَرْباً وَضَرْباً تَسْتَحِقُّ بِهِ غِنَاهَا

كما قال في مطربٍ ثقيلٍ : (4)

وَشَادٍ يُشْتَتُّ شَمْلَ الطَّرْبِ يُمِيتُ السُّرُورَ وَيُحْيِي الْكُرْبَ
بِوَجْهِهِ يُبِيدُ إِذَا مَا بَدَا وَكَفًّا تَضُرُّ إِذَا مَا ضَرَبَ
شَدَا فَعَدَا كُلُّ قَلْبٍ بِهِ قَلِيلَ النَّصِيبِ كَثِيرَ النَّصَبِ
تَعْنَى فَعْنَى قُلُوبِ الرِّفَاقِ وَمَاسَ فَمَسَ الْقُلُوبَ الْعَطْبَ

(1) ينظر : عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 122 .

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 391 .

(3) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 523 .

(4) نفسه ، 523 .

عَوَادِنَا قَدْ طُمِسَتْ عَيْتُهُ فَعَادَ بِالتَّصْحِيفِ قَوَادِنَا
مَا عَادَ إِلَّا لِعَادَاتِهِ لِأَجْلِ ذَا سُمِّيَ عَوَادِنَا

وهناك صور أخرى طريفة اتبع فيها الشعراء أسلوب السخرية ، ومنها هجاء السراج
المحار لامرأة سوداء رآها تعزف على المزمار ، فأتحفنا بصورة فنيّة تبدو كرسمة
كاريكاتورية لها بقوله : (2)

وَلرَّبِّ زَامِرَةٍ تَهِيحُ بِزَمْرِهَا رِيحَ البَطُونِ فَلَيْتَهَا لَمْ تَزْمُرْ
شَبَّهَتْ أَنْمَلَهَا عَلَى صِرِنَاجِهَا وَقَبِيحَ مَبْسَمِهَا الشَّنِيعِ الأَبْخَرِ⁽³⁾
بِخَنَافِسٍ قَصَدَتْ كَنِيفًا وَاعْتَدَتْ تَسْعَى إِلَيْهِ عَلَى خِيَارِ الشَّنْبَرِ⁽⁴⁾

فهو يسخر من عزفها في البيت الأول ، ويوغل في السخرية في بيتيه الثاني والثالث
حين يشبّه أصبعها الأسود ومبسمها القبيح ذو الرائحة الكريهة بخنابس زاهية إلى كنيف ، وذلك
ليبين شدة قبحها وقوة رائحتها النتنة.

هكذا ، نرى كيف جعل الشعراء من أنفسهم نقاداً يصدرون أحكاماً للدفاع عن القيم
الفنيّة المتمثلة في الغناء ، وما يصحبه من موسيقى وعزفٍ وألحان ، معتمدين في ذلك على
حاستي الذوق والسمع عندهم⁽⁵⁾ مُسَخِّرِينَ السخرية في سبيل هجائهم وفضح عيوبهم .

(1) ابن المشد ، سيف الدين ، ديوانه ، 47.

(2) العباسي ، إبراهيم ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، 106/2.

(3) البخر : الرائحة المتغيرة من الفم ، والنتن يكون في الفم وغيره ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نَجْر .

(4) الخيار الشنبر : ضربٌ من الخروب ، شجرة مثل كيار شجر الخوخ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة خَيْر .

(5) عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 118.

ثالثاً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْخَدْمِ وَالْجَوَارِي :

هناك أناس لا يملكون من أمرهم شيئاً، قدر لهم أن يكونوا أدنى مرتبة وأقل منزلة من غيرهم، ومع ذلك لم يسلموا من لسان الشعراء الذين هجوهم وذموهم وسخروا منهم. فابن الوردي الذي عاشرهم يرى أنهم لؤماء غلاظ وهذا رأيه فيهم من خلال تجربته معهم حيث يقول : (1)

إِنَّ الْأَرْقَاءَ غَلَاظَ لُؤْمًا وَكُلُّ مَنْ جَرَّبَ هَذَا عَلِمَا
مَا أَطِيبَ الْمَالَ وَأَحْلَى النَّعْمَا لَوْلَا مَقَاسَاةُ الْعَبِيدِ وَالْإِمَا
فهو يؤكد بأسلوبه التهكمي اللاذع لؤم والأرقاء وغلاظتهم ، ويرى أن طيب المال

وحلاوة النعمة يُنغصان من جراء مقاساة العبيد والإماء ، ويقول في خادمٍ خان مخدمه : (2)

فِي ظَرْفِ خَمْرِ خَانَ مَخْدُومَهُ فَاِمْتَلَأِ الْمَخْدُومُ غِيظًا عَلَيْهِ
لَا بَدْعَ فِي ظَرْفِ أَتَى فَاِصْلًا بَيْنَ مِضَافٍ وَمِضَافٍ إِلَيْهِ
أما إبراهيم المعمار ، فتشدد سخريته منهم إذ يرى أنهم لا تُرتجى مكارمهم ، ويقول

إنه ليس عندهم حشمة ، جاعلاً هذا المعنى في توريةٍ ساخرةٍ بقوله : (3)

وَإِنَّ مِنَ الْخُدَّامِ مَنْ لَيْسَ تُرْتَجَى مَكَارِمُهُ ، فَالْبُعْدُ عَنْهُ غَنَائِمُ
وَلَا تَكُ مِنْ يَتَهَمُهُمْ بِحَشْمَةٍ فَلَيْسَ لَهُمْ بَيْنَ الرَّجَالِ مَحَاشِمُ

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 340.

(2) نفسه ، 256.

(3) المعمار ، إبراهيم ، ديوانه ، ق 27.

وهنا نرى كيف لم يسلم حتى الخدم من سخرية الشعراء ، مع أنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ، لا إن مُدحوا ترتفع مكانتهم ، ولا إن ذُموا تنزل مكانتهم وينحط قدرهم ، ولكن الشعراء أرادوا بالسخرية منهم الإتيان بمعانٍ جديدة والإبداع في القول . (1)

رابعاً : السُّخرية من الأدب والأدباء :

رأى الشعراء في البداية أن الأدبَ خير وسيلة للخلاص من واقعهم السيء وتخيّلوه سُلماً للانتقال إلى مكانة اجتماعية أعلى ، وظنّوا فيه مصدراً للرزق ، فضلاً عن كونه اثباتاً لمواهبهم وإمكاناتهم ، لكنّ آمالهم خابت ، فالممدوحون لا يعطونَ على مدحهم ، وإن أعطوا كان العطاءً قليلاً ، وهنا تحطمت أحلامهم على أرض الواقع ، وتبدّدت آمالهم في سماء الحقيقة ، فالأدب والشعر لم يغيّرا من أمرهم شيئاً ، بحيث رفض المجتمع رفع مكانتهم (2) ومن هنا ، أثر فريق من الشعراء الاحتراف بحرفة تيسّر لهم الرزق ، وتحفظ ماء وجوههم وتُبقي على كرامتهم . (3)

يقول الجزّار مادحاً صناعته ناعياً على صناعة الأدب والشعر : (4)

كيف لا أشكر الجزّارة ما عشتُ حفاظاً وأرفضُ الآدابا
وبها صارت الكلاب تُرجيني وبالشعر كُنت أرجو الكلابا
ويكرر في المعنى نفسه : (5)

لا تعبني بصنعة القصابِ فهي أذكى من عبّر الآداب
كان فضلي على الكلاب فمذمّد حتّ أديباً رجوت فضل الكلاب

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 133 .

(2) ينظر : نفسه ، 207 .

(3) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 4/7 .

(4) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 316/1 .

(5) الحموي ، ابن حجة ، خزانة الأديب ، 248 .

إن الأبيات السابقة بما احتوته من سخرية ، كما يقول أحمد أحمد بدوي تدلُّ على ثورة

في نفس الشاعر ، ناجمةً عن إخفاقه فيما كان يُعلّق عليه كبار الآمال . (1)

أما ابن نباتة فيحدثنا عن حال الشعراء ومكانتهم الاجتماعية ، ويتحسّر على ضياع

الشعر في زمانه ضيعةً السيِّف في يدٍ شلاءً بقوله : (2)

فأجلّ عني حالاً أراني منها كلّ يومٍ في غارةٍ شعواء
فكفى من وضوح حالي أنّي في زماني هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظي الجهير وفضلي ضيعة السيِّف في يدٍ شلاءً

ولم ينع ابن نباتة وحده على صناعة الشعر وموقف الناس منه ، فالوراق يقول : (3)

رَفَضُوا الشَّعْرَ جَهْدَ هُمْ وَرَمَوْهُ بَيْنَهُمْ بِالْهَوَانِ وَالْإِزْدِرَاءِ
فَلَوْ أَنَّ الْكِتَابَ كَانَ بِأَيْدِيهِمْ هُمْ مَحَوًّا مِنْهُ سُورَةَ الشُّعْرَاءِ

باسلوبه الساخر وروحه الفكاهة يبيّن لنا الشاعر مدى كره الناس للشعر إذا وصل بهم

المدى في كرهه إلى محور آية الشعراء من القرآن لو كان بأيديهم ، وكردّة فعلٍ على كره

الناس للشعر والشعراء ، صار الشاعر يبتعد عن لقاء الناس محاولاً عدم الاحتكاك بهم ، مُبيناً

ذلك في قوله : (4)

أصون أديمَ وجهي عن أناس لِقَاءَ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ
وَرَبُّ الشُّعْرِ مَمْقُوتٌ بَغِيضٌ وَلَوْ وَاقَى بِهِ لَهُمْ حَبِيبُ

أما ابن الوردي ، فلم يرث للحال الذي وصل إليه الشعر ، بل رثى الحال الذي يمكن

أن يصل إليه الشاعر إذا نظم الشعر وقاله ، ومن هنا ، نهى ابنه عن نظم الشعر قائلاً : (5)

بُنِيَّ إِيَّاكَ وَنَظْمَ الشُّعْرِ فَإِنَّهُ بِالْعِلْمَاءِ يُزْرِي

(1) ينظر : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، 290.

(2) ابن نباتة ، ديوانه ، 7.

(3) الحموي ، ابن حجة ، خزنة الأدب ، 246.

(4) نفسه ، 246.

(5) ابن الوردي ، ديوانه ، 388.

والله لولا شهرتي وذكرى **بالعلم كان الشعرُ حظٌ قدرى**
أي سخريّة أفسى من تفضيل العلم على الأدب ، واعتبار الأدب ونظم الشعر أمراً
يُحطُّ من قدرِ الإنسان ويُهينه .

هذه الأبيات والأبيات التي سبقها تنطق بأنّ الجناية على الأدب وليدة البيئة
الاجتماعية، ولكنها أيضاً من البيئة السياسية ، ذلك أنّ البيئة السياسية لم تجذب الشعراء ولم
تُعنهم على صناعتهم ، ولو أنها فعلت لكان للشعر صدَى آخر في هذا المجتمع . (1)
وفي هذا المجال أيضاً ، نجد سخريّة ممن يدّعون نظم الشعر وليس لهم شعر ، يقول
الشاب الظريف في ذلك : (2)

وَرُبَّ نَاطِمٍ أَشْعَارٍ وَلاَ يَسَ لَهُ **شِعْرٌ فَهَلْ مِثْلُ هَذَا سَارَ فِي السَّيْرِ**
ويسخر الخياط من المتشاعرين أو الشعارير الذين يحاولون نظم الشعر بغية الدخول
في عداد الشعراء ، يقول : (3)

وَفِي مُتَشَاعِرِي عَصْرِي أَنَاسٌ **أَقَلُّ صِفَاتِ شِعْرِهِمْ جَنُونَ**
يَظُنُونَ الْقَرِيضَ قِيَامَ وَزَنٍ **وَقَافِيَةَ وَمَا شَاعَت تَكُونُ**
فهو يصف شعرهم بالجنون ، ويسخر من عقليتهم وطريقة تفكيرهم إذ يظنون بأنّ
الشعر مجرد وزن وقافية ، وما دروا أنّ هذا تصنّع وليس نظم ، وهم بهذا يكونون أبعد ما
يكون عن الشعر ونظمه .

أما ابن دابنال ، فيسخر من شخصٍ يبتشبه بالشعراء ، بقوله : (4)

وَنَابِحٌ قَدِ افْتَرَى **تَشَبَّهُهُ بِالشُّعْرَا**
يَلُوكُ شِعْرًا يَابِسًا **مِنَ طَبْعَةِ مُحَجَّرَا**

(1) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 14/7 .

(2) الشاب الظريف ، ديوانه ، 165 .

(3) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 342/1 .

(4) الصفدي ، المختار من شعر ابن دابنال ، 141 .

يشبه الشاعر هذا المتشاعر بالكلب الذي ينبج ويرى أن شعره يابس كطبعه المتحجر ،

ثم يُطالب الشاعر بإيقافه عن نظم الشعر لأن شعره قبيح مبتذل ، فيقول : (1)

فَقُلْ لِيْ يَكْفُ عَنْ هَذَا مَقْصَرًا (2)
إِذْ شِعْرُهُ كَذَقْتُهُ وَذَقْتُهُ مِثْلُ (3)

ويسخر الوراق سخرية ابن دابنال ، حيث يتحدث عن شخص أنشده شعراً وطلب رأيه

فقال له : (4)

أَنْشَدَنِي شِعْرًا بِهِ ظَنَنْتُ فَاهُ مَبْعَرًا
وَقَالَ لِي كَيْفَ تَرَى قُلْتُ أَرَى مِثْلَ الْخَرَا
فَقَالَ لِي اسْمَعْ غَيْرَهُ قُلْتُ كَفَى مَا قَدْ جَرَى

(1) نفسه ، 141.

(2) الكلمة محذوفة من المصدر .

(3) الكلمة محذوفة من المصدر .

(4) العيني ، عقد الحمان في تاريخ أهل الزمان، 332.

مالَ الوراقِ إلى ألفاظٍ عاميةٍ في وصف شعر هذا الرَّجل ليزيد من حدة السُّخرية في الأبيات السابقة .

أما الخباز الحموي ، فيقول في شاعرٍ اسمه الزَّغاري : (1)

نَبِحَ الزَّغَارِي عِنْدَ نَظْمِ مَوْشَحٍ وَكَمَالَ نَظْمِي بِالسَّفَاهَةِ نَقْصًا
فَضْرِبَتَهُ بَعْصَا هِجَا لَمَّا عَوَى فَأَصْبَتُ مِصْرَعَهُ وَلَمْ تَضَعْ الْعِصَا

على ما يبدو من الأبيات السابقة ، فإن هذا الشاعر المسمى " الزَّغاري " قد ابتدأ بهجاء الخباز الحموي وسفّه شعره وسخر من نظمه ، فبادلته الخباز الحموي الهجاء والسخرية وضربه بعصا الهجاء بوصفه كلباً ينبح وشعره مجرد عواء ، ويرى أنه أصاب مصرعه وانتقم منه .

ومن سوء حظ الجزائر ، أن الله سلط عليه شاعراً هو مجاهد الخياط ، سخر منه

وهجاه ، وشكك في نزاهة شعره ، بقوله : (2)

أَبَا الْحَسِينِ تَأَدَّبَ مَا الْفَخْرُ بِالشَّعْرِ فُخْرُ
وَمَا تَبَالَّتْ مِنْهُ بِقَطْرَةٍ وَهُوَ بَخْرُ
وَأَنْ أُتِيَّتْ بِبَيْتٍ وَمَا لِبَيْتِكَ قَنْدَرُ
لَمْ تَأْتِ لِلْبَيْتِ إِلَّا عَلَيْهِ لِلنَّاسِ حِكْمَرُ

" وقد كان الجزائر موضع نقمة لدى الشعراء لكثرة حظوته لدى الحكام ، ولسلطة

لسانه " (3) ويبدو أن هذا الأمر قد أغاظ الخياط فسخر منه بهذه الأبيات وتهكم بشعره .

(1) الحموي ، ابن حجة ، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، 111 .

(2) الصفي ، نصرة الثائر على المثل السائر ، 331 .

(3) الحسين ، قصي ، الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني ، 236 .

وإذا كان الخياط قد سخر من شعر الجزار ، فهذا أمر طبيعي مقارنةً مع سخرية الجزار من نفسه ، إذ يسخر منها وممن يحتفون بها ، ولا يجد غضاضةً في إرسال سخريته صريحة سافرة (1) في قوله : (2)

وقد شاركتُ في لغةٍ ونحوٍ وفي علم العروض دخلتُ جهلاً فأذكرني به التفعيل بيتاً مفاعلتن مفاعلتن فعولنٌ وعيشك لست أدري ما طحاهها كأني مثل بعض الناس لماً	بلا علمٍ .. وشاعَ بذاك ذكري وعَمْتُ بخفتي في كلِّ بحر تضمَّن نصفه الشيخ العمري حديث خرافةٍ يا أمَّ عمرو وقد أقررت بأني لست أدري تعلم آيتين فصارَ مقري
---	--

يُقرّ الشاعر بأنه لا يدري في العروض ولا في الشعر شيئاً ساخراً من نفسه ، وإنما

تأتي هذه السخرية في باب التحامق والسخرية من الذات .

ولكنَّ الأبيات السابقة لا تدل على أنه كان بلا علم أو ثقافة كما يقول ، ولا تبرهن أنه يجهل السمات البارزة في أدب عصره (3) لأن أدبه زاخرٌ بما يثبت عكس ذلك ، وإنما قيلت هذه الأبيات في باب التحامق وعلى سبيل السخرية كما أشرنا سابقاً .

(1) ينظر : القباني ، عبد العليم : مع الشعراء أصحاب الحرف ، 38 .

(2) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 315/1 .

(3) ينظر : القباني ، عبد العليم : مع الشعراء أصحاب الحرف ، 38 .

سادساً : السُّخْرِيَّة من الحرف والحرفيين :

سخر بعض الشعراء من حرفهم وذمّوها وأظهروا تبرُّماً منها ، والغريب أنهم كانوا يمدحونها أحياناً ويهجونها أحياناً أخرى ، ولكن ، لماذا كانوا يذمونها ويتبرمون منها ويسخرون كذلك ؟ تكمن الإجابة على هذا السؤال بالقول إن حرفهم لم تُعَدُّ عليهم إلا بالمهانة وازدراء الناس لهم ، لذلك كانت تتملكهم رغبة شديدة بترك حرفهم التي رأوها سبباً من أسباب تعاستهم وانحطاط مكانتهم ، فوصل ضيقهم بها إلى هجائها ، وندب حظهم العاثر الذي أوقعهم بها . (1)

يصور لنا الوراق هذه المأساة بقوله : (2)

بعتُ خُفي في أرضكم من حِرافٍ حفاً بي أو أصارني للثَّحفي
ثمَّ أتبعته ندامة نفسٍ أحوجتني لأكل خفي وكفي

تظهر هذه الأبيات أن الحرف لم تعد على الشاعر بشيء ، بل إنه اضطر لبيع خفه وأحالته الحرفة للثحفي ، ويزيد الشاعر من وقع السخرية بأن يبيّن مأساته مع هذه الحرف التي أحوجته لأكل خفه وكفه .

أما الجزار ، فلم يجد غير ساعديه يشق بهما الطريق المُضني الذي ينتظره ، وهو طريق شاق لم يشعر فيه بأيّ لونٍ من ألوان الرضا ، فقلّة الأجر الذي قدّر له أن يحصل عليه من حرفته لم يكن يفي بضروريّاته بالرغم من سعيه في سبيله (3) ومن هنا ، كان الجزار أكثر

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرباب الحرف ، 197 .

(2) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 146/1 .

(3) ينظر : القباني ، عبد العليم : مع الشعراء أصحاب الحرف ، 41 .

الشعراء شكوى من الحرف ، حيث أوصلته حرفته إلى اليأس من حياته لشدة ما لحقه من أذى، فذمها وسخر منها ، وبدأ هذا الضيق بحرفته وذمها (1) بقوله : (2)

حَسْبِي جِرَافاً بِحَرْفَتِي حَسْبِي أَصْبَحْتُ فِيهَا مُعَذَّبُ الْقَلْبِ
مَوْسَخُ الثُّوبِ وَالصَّحِيفَةِ مِنْ طَوْلِ اِكْتِسَابِي ذَنْباً بِلَا ذَنْبِ
أَعْمَلُ فِي اللَّحْمِ لِلْعِشَاءِ وَلَا أَنْالُ مِنْهُ الْعِشَاءَ فَمَا ذَنْبِي
خَلِي فُوَادِي وَلِي فَمٌ وَسِخٌ كَأَنِّي فِي جِزَارَتِي كَلْبِي

مشهد ساخر ، يمزج بين الضحك والألم في آن واحد ، يتحدث فيه الشاعر عن معاناته في حرفته "الجزارة" ، فما أفسى حياة مثل هذا الإنسان الذي لا يستطيع الأكل من شيء من بين يديه ، ليس هذا فقط ، إنه يصف لنا حاله في هذه الحرفة ، فهو مَوْسَخُ الثوبِ وَالصَّحِيفَةِ وفمه وَسِخٌ كذلك ، كل هذا العذاب الذي اجتاح قلبه تحول على لسانه إلى سخرية صاغها في جو من الضحك الممزوج بالألم .

ويقول في قصيدة أخرى : (3)

أَصْبَحْتُ لِحَاماً وَفِي الْبَيْتِ لَا أَعْرِفُ مَا رَائِحَةُ اللَّحْمِ
وَلَيْسَ حَظِّي مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ قَنَعْتُ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمِ
وَاعْتَضْتُ مِنْ فَقْرِي وَمَنْ فَاقْتِي عَنِ التَّذَاذِ الطَّعْمِ بِالشَّمِّ
جَهَاتِهِ فَقِراً، فَكُنْتُ الَّذِي أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ

الجزار لِحَامٌ ولكن لم يُقسم له من اللحم إلا اسمه ، فهو في بئيه لا يعرف رائحة اللحم، ولعظم بليته استغنى عن التذاذ الطعم بالشَّمِّ ، وأصعب ما في الأمر أن جهله كان على علم منه ومعرفة.

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 204 .

(2) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 316/1 .

(3) نفسه ، 317/1 .

أما ابن دانيال ، فإنه تبرّم بحرفته أيضاً ، وأشار إلى قلة ما تعود به عليه ، حيث

يقول: (1)

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس
يصوغ الشاعر تبرّمه من حرفته وسخريته منها على شكل نكتة متمثلة في توريته

" يأخذه من أعين الناس " وتتمثل التورية بين صنعة التكحيل والقول العامي يأخذ الشيء من عينه ، فطبيب العيون يأخذ رزقه جراء معالجته العيون . وما يهمننا هنا أن الشاعر أراد بيان مدى صعوبة تحصيله للرزق من خلال توظيف المثل الشعبي ، كل ذلك بأسلوبٍ ساخرٍ فكاهي .

وابن دانيال هو القائل أيضاً : (2)

طبيب غدا في الكحل غير موفق له حكمة تجني على العين والسمع
إذا أرمد وإفاه يشكو تالماً من العين داوى العين كالضرس بالقلع

تختلف هذه الأبيات عن التي سبقتها بالرغم من تناولها للموضوع نفسه ، وهو الحرفة ، حيث أصاب الشاعر هنا بسخريته طبيباً آخر يدعى موفق ، جاعلاً طبيعته في العمل متنافية مع معنى اسمه ، فهو في طبّه غير موفق ، يجني على الناس ، يداويهم إذا ما اشتكوا من أعينهم بقلعها كما يُقلع الضرس ، بلا تفريقٍ بين الأمرين .

ولربما أراد ابن دانيال التشهير بمنافسة هذا ليُنْفَر الناس منه ، فسخر منه ومن طريقته

في مداوة العيون . (3)

ويقول في طبيبٍ آخر يدعى أبو علي : (4)

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 92 .

(2) نفسه ، 93 .

(3) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 188 .

(4) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 94 .

يَقُولُونَ: الطَّبِيبُ أَبُو عَلِيٍّ يَبْدُلُ الْجُودَ مَبْسُوطَ الْيَدَيْنِ
فَقُلْتُ : عَلِمْتُ ذَلِكَ وَهُوَ سَمْحٌ يُضَيِّعُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ عَيْنٍ

ببراعة ، يحول الشاعر صفة حميدة في هذا الطبيب إلى مادة لسخريته ، إذ يوافق

على أن أبا عليّ كريم سمح جواد ، وبرأي الشاعر يكمن كرمه في تضييعه للعيون بكميات هائلة ، إذ يُضَيِّعُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ عَيْنٍ .

وكذلك سخر من جراح عيون بقوله : (1)

صَاحِبُنَا الْأَسِي لَمْ يُعْطِهِ رَحْمَانٌ فِي صَنْعَتِهِ عِلْمًا
ال وَكُلَّمَا أَعْمَى عُيُونَ الْوَرَى قَالَ لَنَا: إِنَّ الْحَدِيدَ أَعْمَى

سخر ابن دابنال من هذا الجراح ، وحكم عليه بالجهل ، وسخر من تبرير هذا الجراح

إعمائه العيون وإطفاء نورها بإلقاء اللوم على الحديد الأعمى الذي لا يرى .

أما الإسعدي ، فقال يهجو كحالا بقوله : (2)

دَعُوا الشَّمْسَ مِنْ كُحْلِ الْعَيُونِ فَكْفُهُ تَسُوقُ إِلَى الطَّرْفِ الصَّحِيحِ الدَّوَاهِيَا
فَكَمْ دَهَبَتْ مِنْ نَاطِرٍ بِسَوَادِهِ وَخَلَّتْ بِيَاضًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا

(1) نفسه ، الصفحة نفسها .

(2) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 230/5.

وينحى صفي الدين الحلي هذا المنحى في السخرية من الأطباء ، ومن ذلك ما قاله في

طبيبٍ يُدعى إسحق ، حيث يقول : (1)

مَبَاضِعُ إِسْحَاقَ الطَّيِّبِ كَأَنَّهَا لَهَا بِقِنَاءِ الْعَالَمِينَ كَفَيْلُ
مُعَوَّدَةٌ أَلَا تُسَلِّ نِصَالَهَا فَتُغَمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ

فكأن مباح هذا الطبيب المسمى إسحق كقيلة بفناء الناس ، فهي معودة ألا تعود إلى

أغمارها بعد إخراجها إلا بعد تصوير قتيلا ، وكأن ملك الموت جاثم على حافتها متحضر
لاستلام الأرواح .

ويقول في طبيبٍ آخر اسمه عيسى : (2)

أرى فيكَ يا عيسى الطَّيِّبُ فُضِيَّةً هِيَ الضِّدُّ مِنْ أفعالِ عيسى بن
مَرِيَمَ وَتُضَنِّي وَتُغْنِي بِالْيَدَيْنِ وَيَالِقَمِ
وَتَحْمِي وَلَكِنْ عَن شِفَاءٍ وَصِحَّةٍ وَتَحْقِنُ أَلَا لِلْحَيَاءِ وَاللِّدَمِ
فَمَا أَنْتَ إِلَّا خَبْطُ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِيبُ ثَمَّتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِرَمِ (3)

يستحضر الشاعر معجزة سيدنا عيسى في إحياء الموتى وطبابة الجرحى ليجعل الضد

منها أفعال مهجوه عيسى الذي يميت الأحياء من غير علة ويمرض الأصحاء ، ثم يصب

مهجوه بالسخرية مرّة أخرى من خلال التضمين من بيت زهير بن أبي سلمى ، الذي يقول: (4)

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشَوَاءَ مَنْ ثَمَّتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِرَمِ
تُصِيبُ

(1) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 530.

(2) نفسه ، 531.

(3) العشواء : الناقة العمياء والخبط : السير على غير هدي ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عشي ومادة خبط .

(4) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، 10.

فيجعل الشاعر هذا الطبيب نظيراً للموت ، كلاهما يتخبطان كالناقة العمياء التي تسير على غير هدي ، من تصب تمته ، ومن تخطئه يُعمر فيهرم .

ويهجو ابن الوردي طبيباً يهودياً ، تدفعه لذلك نزعة دينية ، محذراً من هذا الطبيب الذي يرى الشاعر أنه يأخذ بثأر آبائه ، مطالباً بعدم إهمال أمره ، حيث يقول : (1)

هذا اليهوديُّ الطيبُ الذي لا طوّلَ اللهُ لنا عمره
قد أخذَ الثأرَ لأبائه يا قومنا لا تهملوا أمره
تخافُ عينُ الشمسِ من كحلِّه قائلَةٌ ربنا اكفني شره
أيُّ مريضٍ طبَّه طمَّه وأيُّ طرفٍ ذرَّه ضرَّه

مبالغةً شعرية في البيت الثالث في جعل عين الشمس تخاف من هذا الطبيب وتطلب

من الله كفايتها شره ، حيث لا يسلم مريض إذا وقع بين يده ، ولا طرف يمسه إلا يضره .

ومن الحرف التي كثر ورودها في الشعر ، العمل في الحمام ، إذ اشتكى الشعراء من الحمّامات التي لم تتوافر فيها شروط الراحة للمستحمين ، فسخروا منها . ومن ذلك ما قاله ابن الأعمى في حمامٍ وجده سيئاً ووجد قيمه أسوأ ، فسخر من كليهما بقوله : (2)

إنَّ حمّامكم الذي نحنُ فيه قد أناخ العذابُ فيه وخيم
مظلم الأرض والسّما والنّواحي كلُّ عيبٍ من عيبه يتعلم
وبه مالكُ غدا خازن النّاء ر ، بلى مالك أرق وأرحم
كلّما قلتُ : قد أطلت عذابي قال لي : إخساً فيه ولا تتكلم
قلتُ لَمّا رأيته يتلظى ربنا اصرف عنا عذاب جهنم (3)

يجعل الشاعر من الحمام بؤرة للعيوب من كل لون وجنس ، منه تتطلق وعليه تقاس ،

وهنا ابتدع الشاعر من عيوب الأشياء الصّغيرة صورةً جديدةً لمعابةٍ كبيرةٍ لا حدود لها . (4)

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 205.

(2) الحنبلي ، ابن عماد ، شذرات الذهب ، 736/7.

(3) اقتباس من قوله تعالى : "لَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِيُنزَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُورَةُ الْفُرْقَانِ الْفُورَانِ" سورة الفرقان ، آية : 65.

(4) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 188.

ومن الشعراء الذي ذمّوا حمّاماً ابن الوردى إذ يقول : (1)

حَمَامِكُمْ فِي كُلِّ أَوْصَافِهِ كَوَجْهِ شَخْصٍ غَيْرِ مَذْكُورِ
شَدِيدُ بَرْدٍ وَسَخٌّ مَوْحَشٌ قَلِيلُ مَاءٍ فَاقْدُ النُّورِ

لا يجد الشاعر في الحمام ما يرضيه ، فهو شديد البرد ، وسخ موحش ، قليل الماء ،

لا نور فيه ، لذلك سخر منه الشاعر وذمّه .

وله في ذمّ قيم حمّام : (2)

حَمَامُكُمْ قِيمُهُ شَاطِرٌ هَرَبْتُ مِنْهُ وَأَنَا صَارِخٌ
قَدْ سَلَخْتُ جِسْمِي أَظْفَارُهُ يَا قَوْمُ هَذَا الْأَسْوَدُ السَّالِخُ

يستمد الشاعر مادة سخريته وقوامها من هذا القيم الأسود الذي لا يُحسن عمله فيلقبه

بالأسود السّالخ .

أما صفي الدين الحلي ، فيقول في حمّام : (3)

إِنَّ حَمَامَكَ قَدْ ضَـ مَتَ حَمِيمًا وَحَمَامًا
فَهِيَ مِثْلُ النَّارِ سَاعَتَ مُسْتَقْرًّا وَمَقَامًا (4)

(1) ابن الوردى ، ديوانه ، 205 .

(2) نفسه ، 309 .

(3) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 527 .

(4) اقتباس من قوله تعالى : " ﴿لَا يَخْلُقُ إِلَّا مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ " سورة الفرقان ، آية : 66 .

الحر الشديد في الحمام جعله يشبهها بالنار التي ساءت مستقراً ومقاماً ، وهذا الحر هو

نفسه الذي جعل المعمار يهجو حماماً ويسخر منه مؤكداً عدم مقدرته على نسيانه يقول فيه: (1)

لَمْ أُنْسَ حَمَاماً دَخَلْتُ بِهَا ضُحاً فَتَصَاعَدَتْ مِنْ حَرِّهَا
زَفْرَاتِي
لَا مَاءَ فِيهَا وَالطَّهْوَرُ مُنَجَّسٌ فُخِرْجَتْ مِنْهَا بِأَدْيِ
الْحَمَامِ سِرَاتِ

الحمام الذي يفترض فيه التطهر طهوره مُنَجَّسٌ ، أي سخريته أشد من هذه السخريّة

وأقصى؟!

والمعمار نفسه الذي هجا الحمام يتحدث عن حرفي آخر هو الطَّبَّاحُ ولكن بأسلوب

رقيق فكه مبيناً حبه لهذا الطباخ وتعذيب الأخير له مستعيناً من مهنته ما يُعِينُهُ عَلَى بِنَاءِ

فكاهته ، حيث يقول : (2)

هَوَيْتُ طَبَّاحاً سَلَانِي وَقَدْ قَلَا فَوَادِي بَعْدَمَا رَدَّه
مُحَرَّقاً مِنْ هَجْرِهِ لَمْ يَزَلْ يَغْرِفُ لِي أَحْمَضَ مَا عِنْدَهُ

(1) المعمار ، إبراهيم ، ديوانه ، ق 6.

(2) نفسه ، ق 8.

سابعاً : السُّخْرِيَّة من مواقف مختلفة :

نظم الشعراء مقطعاتٍ كثيرةً سخروا فيها من مواقف مختلفة يصعب إدراجها تحت العناوين السابقة ، أو تصنيفها ضمن عناوين منفردة ، لذلك ارتأيت جمعها تحت عنوان السخرية من مواقف متعددة .

ومن أول هذه المواقف : الصَّع ، حيث أُلْعَ الشعراء في العصر المملوكي به ، فعبروا عنه في أشعارهم ، والتصافع عادة جارية بين الناس في أعياد النيروز (1) وهو عيدٌ يحتفل به المصريون جرّت العادة فيه على إشعالِ النيران والتّراش بالماء والتصافع بالأنطاع.(2)

وقد استغلَّ بعض الشعراء الصّفع ، فجعلوه مادةً قوامها السُّخْرِيَّة ، ومن ذلك ما قاله ابن دانيال في شخصٍ يُدعى سراج الدين : (3)

رأيتُ سراجَ الدّينِ للصّفعِ حاضرًا ولكنّه في علمه فاسدُ الدّهْنِ
استره بالكفِّ خوفًا انطفائه وآفته من طفته كثرةُ الدّهْنِ

ببراعة يبني ابن دانيال سخريته من مادة الصّفع ولقب المهجو ، فيمزج بينهما ، لتأثينا هذه الصورة الساخرة التي يرى فيها الشاعر أن سراج الدين - صالح للصّفع برغم فساد ذهنه وهو خير من يُصّفع لأن ستره بالأكفِّ يحافظ عليه فلا ينطفيء.

(1) ينظر : سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر المملوكي ، 173/2 .

(2) ينظر : المقرئ ، الخطط 279/1 ، و ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في آدب العصر المملوكي الأول ، 259 .

(3) الصّفي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 337/1 .

ويكتب ابن دابنال كذلك لصديق له يُدعى " البرهان " وكان به رَمَد ومع ذلك لم يُرحم

ولم يسلم من الصفع ، فداعبه الشاعر بقوله : (1)

صُفَعِ الْبِرْهَانَ وَمَا رُحِمَا فَبَكَى مِنْ بَعْدِ الدَّمْعِ دَمَا
قَدْ كَانَ شَكَا رَمَدًا صَعْبًا فَأَزْدَادَ بِذَلِكَ الصَّفْعِ عَمَى
وَرَمَى التَّوْرُوذُ أَخَادِعَهُ حَتَّى بَاتَتْ تَشْكُو وَرَمَا

لم ترحم الأُكف هذا الأُرمَد ولم يسلم من الصَّعق ، كما أن الشاعر لم يرحمه فلم يسلم

من السُّخْرِيَّة .

ويقول إبراهيم المعمار في هذا الأمر : (2)

سَأَلْتَهُ عَنْ صَفْعَةٍ ، قَالَ لِي : جَنَائِيَةَ الصَّفْعَةِ مَا مِنْهُ بُدْ
صَاعٌ مِنَ التَّمْرِ أَحْلَى بِهِ قَلْتُ : نَعَمْ ، أُعْطِيكَ صَاعًا وَمَدْ
يَقْصِدُ صَاعًا وَمَدًّا مِنَ الصَّعْقِ لَا مِنَ التَّمْرِ .

ومن الصفع ننتقل إلى موضوع آخر هو المرض ، فقد أعان الجذب وال فقر على تقشّي

عديد من الأمراض والأوبئة بين الناس (3) ومن هذه الأمراض مَرَضُ الطَاعُونَ الذي يقول ،

فيه ابن فضل الله العمري : (4)

قُبِحَ الطَاعُونَ دَاءً ذَهَبَتْ فِيهِ الْأَحْبَابُ
أَرْخَصَ الْأَنْفُسَ بَيْعًا كُنْ لِنَسَانٍ بِحَبِّهِ

لا شك أن الشاعر مُتَأَثِّرٌ بما يفعله هذا المرض ، ولكنه لا يتوانى في استخدام عَرَضٍ

من أعراضه لبناء سخريته ، فالطاعون يصحبه دُمَلٌ كبير ، ويُحسن الشاعر في توريته التي

صاغها بأسلوب فكّه ساخر .

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دابنال ، 136. و الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 336/1.

(2) المعمار ، إبراهيم ، ديوانه ، ق 9.

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في آدب العصر المملوكي الأول ، 269.

(4) غريب ، علي محمد علي ، شعر ابن فضل الله العمري ، جمع وتوثيق ودراسة ، رسالة ماجستير ، 295.

ويسخر ابن دانيال من دُمِّلٍ طلع له إذ يقول : (1)

فَسَّرَ لِي عَابِرٌ مَنَامَا أَحْسَنَ فِي قَوْلِهِ وَأَجْمَلُ
وَقَالَ لَا بُدَّ مِنْ طُلُوعِ فَكَانَ ذَاكَ الطُّلُوعُ دُمِّلُ

ويتلاعب بلقبه في موضع آخر ضمن حديثه عن هذا الدمل حيث يقول : (2)

كَمْ قِيلَ لِي إِذْ دُعِيتُ شَمْسًا لَا بُدَّ لِلشَّمْسِ مِنْ طُلُوعِ
فَكَانَ ذَاكَ الطُّلُوعُ دَاءً يَرِقَا إِلَى السَّطْحِ مِنْ ضُلُوعِي
" فابن دانيال في هذه الأبيات ركز على عنصر التورية في كلمة " طلوع " وما تعطيه

من معانٍ متناقضة تثير الضحك" . (3)

ومن الموضوعات التي سخر منها الشعراء ، الليل ، إذ يقول فيه البهاء زهير : (4)

لَا رَعَاهُ اللَّهُ مَا أطْوَلَهُ تَحَبَّلُ الْمَرَأَةُ فِيهِ وَتَلِدُ
حيث يصف طوله ساخرًا منه بالمبالغة في وصف طوله مُستعِينًا بما تقوله العامة .

وسخر الوراق من الوحدة ، بقوله : (5)

أفردتني الأيامُ عن كُلِّ خَلٍّ وَأَنيسٍ وصاحبٍ وصَدِيقِ
فلو أَنِّي مشيتُ في شهر لأبى الظلُّ أن يكون رفيقي
أب

ولا يغرتك الإطار الجدِّي لهذه الأبيات ، ففيها من السخرية والتهكم ما يدعونا

للضحك، فهي أبياتٌ ظاهرها جدٌّ وباطنها هزل .

ونراه يسخر في أبياتٍ أخرى من الصَّبْرِ ، مع أن الصَّبْرَ محمود ، يقول : (6)

وَقَائِلٍ قَالَ لِي لَمَّا رَأَى قَلْقِي مِنْ انْتِظَارِي لِأَمَالٍ تُعِينِنَا

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 287.

(2) نفسه ، 169.

(3) أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في آدب العصر المملوكي الأول ، 246.

(4) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 75.

(5) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 159/1.

(6) الصفدي ، صلاح الدين ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 265/1.

عَوَاقِبُ الصَّبْرِ فِيمَا قَالَ أَكْثَرُهُمْ مَحْمُودَةٌ قُلْتُ أَخْشَى أَنْ تُخْرِينَا

فكما نرى ، حتى الصفات الحميدة لم تسلم من السخرية .

ومن الأمور التي سخر الشعراء منها أو جعلوها مُعيناً لهم على السخرية ، الألقاب ،

حيث تهكم الشعراء من مجهوبيهم باستخدام ألقابهم في أشعارهم والتورية فيها لتخدم أغراضهم

الهادفة إلى السخرية .

ومن ذلك ما قاله ابن تولو الفهري في الجزار وقاضي مصر الذي أمر بقطع أرزاق

الشعراء من الصدقات مستثنياً الجزار ، مما أغضب ابن تولو فاستمد مادته من لقب المهجو

وسخر منه بدافع شخصي (1) في قوله : (2)

بقطع رزق البر والفاجر
فاعجب للطف التيس بالجازر

تقدم القاضي لنوابه
ووفر الجزار من بينهم

(1) ينظر : الحسين ، قصي ، الأدب العربي في العصرين المملوكي العثماني ، 236.

(2) بردي ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، 369/7.

يضرب الشاعرِ عصفورين بحجر كما يقول المثل ، فهو يسخر من الجزار لغيظه
منه، ويسخر من القاضي لاعتباره غير عادل ، فيجعله تيساً لطيفاً مع جَازِره مستغلاً هذا
اللقب في تكوين صورة ساخرة لكلا مهجويّه .

ومن هذا القبيل سخرية مجاهد الخياط من الجزار أيضاً بقوله : (1)

إِنْ تَاهَ جَزَارُكُمْ عَلَيْكُمْ بَفْطَنَةٍ عِنْدَهُ وَكَئِيسٍ (2)
فَلَيْسَ يَرْجُوهُ غَيْرَ كَلْبٍ وَلَيْسَ يَخْشَاهُ غَيْرَ تَيْسٍ

هنا يجعل الشاعرِ مادة سخريته : لقب الجزار ، وحلّبة سخريته : مهنة الجزارة ،
مورياً بلقبه ومهنته بأسلوبٍ فكه مضحكٍ مُقللاً من قدر مهجوه بجعله في أدنى درجات المروّة
والكرامة حيث لا يرجوه غير كلب ، ولا يخشاه غير تيس .

وقد يسخر الشاعر نفسه من لقبه بقصد الإضحاك والتكيت ومن هذا القبيل قول

الوراق : (3)

شعريتي مُذ رمدت قد حبست طرفي عنكم فصرتُ محبوسا
الحمدُ لِلّهِ زادني شرفاً كنت سراجاً فصرتُ فانوسا

ولا يسخر الوراق من لقبه فقط ، بل نراه يسخر من لونه وشيئه بقوله : (4)

ذَهَبَ الْعُصْفَرُ مِنِّي وَبَدَا قِرْطُمٌ شَيْبِي (5)
والتّي قد ملكت رقـ ي رَدَّتْني بعبيبي

(1) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 102/1 .

(2) الكيس في الأمور ما يجري مجرى الرفق فيها ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة كَيْس .

(3) الحموي ، ابن حجّة ، خزنة الأدب ، 244 .

(4) الصفدي ، نصرّة الثائر على المثل السائر ، 235 .

(5) القرطم : حبّ أو ثمر العصفور ولونه أصفر ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قَرْطُم .

"حيث شبّه السراج الشيب بالقرطم ، وإنما حسن ذلك لأنه كان أشقر " . (1)

وقد كان للبلدان أثرها ونصيبها من الهجاء والسخرية لسبب أو لآخر ، ومن ذلك هجاء

ابن الوردي لمدينة شيزر (2) في قوله : (3)

قيل لي : شيزرُ نارٌ وبها العاصي مخذُ
قلت : لا أمكثُ فيها أنا من حزبِ محمدُ

يبدو أن شيزر مدينةٌ مُناخها حار ، وهذا المناخ لم يُلائم الشاعر فسخر منها مستغلاً

اسم النهر العاصي الذي يمرُّ بها ، بانياً توريته بين اسم النهر ومعناه لبيان رفضه المكوث

فيها، كل هذه السخرية ساقها بأسلوبٍ لا يخلو من النكتة والظرف .

ويبدو أن ابن الوردي كان كثير الترحال ، حيث وقف بمدينة اسمها البيرة (5) فلم ترّقه

، وسعد بارتحاله عنها ، ولأنّه لم يحبها ، سخر منها بقوله : (6)

إنما البيرةُ بيـرٌ رحلتني منها سعادةُ
قيلَ والبيرةُ بيـرٌ قلتُ بيـرٌ وزيادةُ

(1)الصفدي ، نصرّة الثائر على المثل السائر ، 235.

(2) شيزر : حصن شمال حماة ، الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، 308/3-382.

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 335..

(4) العاصي : اسم نهر انطاكية ، وقيل نهر حماة بالشام من عمل حمص ، وهو نهرٌ عظيم ، عليه جسور يُعبر عليها ، وعليه نواعير كثيرة ، تخرج الماء على ما على جانبيه من المدينة ، ينظر : الحميري ، الروض المعطار ، 405.

(5) البيرة : بلد قرب سماء ، بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ، الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، 526/1

(6) ابن الوردي ، ديوانه ، 318.

أما صفي الدين الحلّي فيسخر من الغور⁽¹⁾ حيث الحرارة مضاعفة والبعوض كثير ،

والذباب لا يبارحها ، يقول في ذلك : (2)

بِالْغُورِ أَضْحَتْ وَهِيَ شَرُّ بَقَاعِهِ
فِي مَرَجِهَا لَمَّا حَلَّتْ بَقَاعِهِ
عَرْدًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ⁽³⁾

لَا جَادَ هَطَّالُ السَّحَابِ بُقْعَةَ
أَرْضٍ تَضَاعَفَ حَرُّهَا وَبَعُوضُهَا
وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحَ

(1) الغور : المنخفض من الأرض ، ومن غور تهامة وغور الأردن بين بيت المقدس والأردن ، الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان، 4/217.

(2) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 528.

(3) البيت مضمن من شعر عنتره في وصف الذباب.

الفصل الرابع

السُّخْرِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ فِي الشَّعْرِ

- . أولاً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ .
- . ثانياً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ مَوْظِفِي الدَّوْلَةِ .

الفصل الرابع

السخرية السياسية في الشعر :

إنّ من يتصفّح آثار الشعراء في العصر المملوكي لا يلبث أن يغرق في الضحك لكثرة ما صنعوا من مُداعبات وفكاهات ، لم يقتصروا بها على رفقاتهم وأصدقائهم فحسب ، بل تعدّوهم إلى ساستهم وحكامهم .⁽¹⁾

" وتعرّض لنقد الرؤساء وهجائهم أكثر من واحدٍ من الشعراء ، ومن الرؤساء أمراء الدولة وقضاتها ، ومن الرؤساء أيضاً من يُقيم ببابه ، أميناً أو كاتباً ، يُصرف الأمور قبل إقبالها عليه ، وينظمها ويحسن تقديمها ، وقد يطغى ويغريه بالطغيان انصراف رئيسه عن متابعة عمله وتفتشيه ومراجعته ، فيصبح بعد قليلٍ هو الرئيس الفعلي والمتصرف الأول الحاسم فيما يُعرض على رئيسه ، ويؤدي ذلك في كثير من الأحوال إلى اضطراب الأمور وقلقها ، وإلى إثارة النفوس وحملتها " .⁽²⁾

ومن هنا نقول : إنّ فساد الحكّام والولاة والقضاة وحيلهم الواسعة ظلّت لوقتٍ طويلٍ مورداً غزيراً لظرف الظرفاء⁽³⁾ ولكن هؤلاء الظرفاء لم يقصدوا التظارف والإضحاك بلا مغزى ، فانقادهم وهجاؤهم للظالمين من الملوك والأمراء والعمال الفاسدين من القضاة وغيرهم - وإن كان بجوٍ من التفكّه والسخرية - هو ما جعل شعرهم يُعدّ من مظاهر المقاومة

(1) ينظر : ضيف ، شوقي ، في الشعر والفكاهة في مصر ، 72 .

(2) سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 45/7 .

(3) ينظر : القشطيني ، خالد ، سجل الفكاهة العربية ، 125 .

الشعبية والتمرد على الجور والمفاسد الاجتماعية ، ومن هنا أنتت أهمية شعرهم وتفرده في الشعر العربي . (1)

وقد قمت بتقسيم السخرية السياسية إلى قسمين هما : السخرية من الملوك والأمراء ، والسخرية من موظفي الدولة ومستخدميها .

أولاً : السخرية من الملوك والأمراء :

أينما وليت وجهك في صحف هذا العصر ، وجدت الشعراء يُضحكون معاصريهم على حكّامهم وأمرائهم . (2)

ومن قبيل النقد السياسي نقد الملوك الصغار الذين يُقلدون الحكم وهم دون سن الرشد ، فيتولى عنهم السلطة رجالٌ آخرون ، مما يؤدي إلى انتشار الفساد والفوضى (3) وقد أتى الجزار على ذكر ذلك بحديثه عن الملك الأشرف (4) الذي كان طفلاً صغيراً على الحكم فلم يستطع تدبير البلاد ، يقول فيه : (5)

والمك الأشرف كان طفلاً فلم يُدبر عَقْدَها والحلا

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 125 .

(2) ينظر : ضيف ، شوقي ، في الشعر والفكاهة في مصر ، 72 .

(3) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 251 .

(4) هو الأشرف بن الناصر يوسف بن محمد ، ولي السلطنة بعد شجرة الدر وخلع في نفس سنة توليه أي سنة 648هـ ، ينظر :

ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، 44 .

(5) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، 44 .

وقد نظم ابن الوردي أبياتاً حين تسلطن الملك كجك (1) وكان صغيراً ، حيث قال

فيه: (2)

سلطاننا اليوم طفلٌ والأكابرُ في خُلفٍ وبينهم الشيطانُ قدْ نزغاً
فكيفَ يطمعُ مَنْ مسَّتهُ مظلمةٌ أنْ يبلغَ السُّؤلَ والسلطانُ ما بلغا

لا يسخر الشاعر في البيتين السابقين من قضية صغر الحاكم فقط ، بل تتعدى سخريته إلى الوضع الذي آلت إليه الأمور ، والوضع كالاتي : السلطان طفلٌ ، وهناك من يتسابق على الحكم عوضاً عنه ، والشيطان نازعٌ بينهم ، كل ذلك يؤدي إلى تدهور الأمور والبلاد ، وأين الشعب من كل ذلك؟! الشعبُ في حالة ضياعٍ وظلم ، فكيف يستطيع من مسَّته مظلمة من هذا الشعب أن يشكو أمره وان يبلغ سؤله ، وسلطانه لم يبلغ بعد؟!

وقد سخر الشعراء كذلك من كثرة تغيير النواب وعزلهم فتوجَّهوا في نقدهم أولاً نحو رأس الأمر ومن بيده مقاليد الأمور ، وهي الدولة متمثلةً بالسلطان ورجاله في القاهرة العاصمة (3) وفي ذلك قال ابن الوردي : (4)

هذي أمورٌ عظامٌ من بعضها القلبُ ذائبٌ
ما حالَ قطرٍ يليه في كلِّ شهرين نائبٌ

(1) هو الاشرف علاء الدين كجك بن الناصر بن محمد بن قلاوون ، تسلطن الملك سنة 742هـ ثم خلع من عامه وولي أخوه أحمد ولقب بالناصر ، ينظر : ابن ظهيرة ، الفضائل الناهرة ، 46. و الحنبلي ، ابن عماد ، شذرات الذهب ، 236/8.
(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 222.
(3) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، 165.
(4) ابن الوردي ، ديوانه ، 482.

وقد كانَ على الناس أن يستقبلوا كلَّ نائبٍ جديدٍ بأبهى حُلَّة ، وأن يزِينوا الأسواق والشوارع ترحيباً بقدومه ، وكانوا يجدون المتعة في ذلك بادئ الأمر ، لكن بعد أن كثرَ عليهم تغيير النواب اشتدَّ عليهم الأمر وثقل ، فصور ذلك ابن الوردي تصويراً ساخراً (1) بقوله : (2)

كَمْ مَلِكٍ جَاءَ وَكَمْ نَائِبٍ يَا زِينَةَ الْأَسْوَاقِ حَتَّى مَتَى
قَدْ كَرَّرُوا الزِينَةَ حَتَّى اللَّحَى مَا بَقِيَتْ تَلْحَقُ أَنْ تَنْبِتَا

وفي البيتين السابقين بيان لكثرة تغيير النواب ، ومبالغة في الأمر ، إذ يقول الشاعر ساخراً أن اللحي لم تعد تعلق حين يأتي نائب جديد لأنها لا تكون قد نبتت بعد ، وكأن تغيير النواب كل يوم .

ويأتي ابن الوردي على ذكر أسباب العزل والتغيير في قوله : (3)

سَاكِنِي مِصْرَ أَيْنَ ذَاكَ التَّائِي وَالتَّائِي وَمَالِكُمْ عَنْهُ عِذْرُ
يَخْسِرُ الشَّخْصُ مَالَهُ وَيُقَاسِي تَعَبَ الدَّهْرِ وَالْوَالِيَةَ شَهْرُ

يبين الشاعر في الأبيات السابقة أسباب عزل النواب وتغييرهم المتمثل في الرشوة ، فمن يدفع أكثر يكسب المنصب ، ويسخر الشاعر من هؤلاء الذين يقاسون ويخسرون أموالهم وتعَب سنينهم لينالوا الولاية ثم يخسرونها بعد شهر لأن راسخ آخر يدفع أكثر منهم وهكذا .
دواليك .

ومتلماً بُلِّي الناس في العصر المملوكي بملوك وأمراء يطغون ويظلمون ويفسدون ، فقد بُلِّي الملوك والأمراء بشعراء ينتقدونهم ويسخرون منهم ، فقد تعرَّض لنقدهم أكثر من واحدٍ من الشعراء (4) كالبوصيري وابن الوردي وابن دانيال وغيرهم ، وكانت هذه السخرية سلاحاً

(1) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، 165 .

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 485 .

(3) نفسه ، 491 .

(4) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 214/7 .

في محاربة الظلم والفساد ومقاومة الجور والطغيان ، أو على الأقل ، كانت تلفت الحكام إلى مثل هذه الأوضاع . (1)

ومن ذلك ما قاله ابن دانيال في أحد الأمراء الموكلين بجمع المال ، مُبيّناً مدى تعاليه وطمعه ، يقول فيه : (2)

ذَا يُنَادِي قَالَ الْأَمِيرُ أَطْلَبُوا الدِّيَّ	وَأَسْتَعْجِلُوا مَعَ الْكِيَالِ
فَتُؤَافِي إِلَيْهِ وَهُوَ مِنَ الْعَجَبِ	بِ بَأْنَفٍ عَلَى الْوِزَارَةِ عَالِي
فِيُنَادِي حُجَابُهُ أَقْبِضُوا لَا	تَقْبِضُوا دُونَ قَبْضِ رَسْمِ الْوَالِي
وَأَحْذَرُوا أَنْ تُنْظَفُوا غَلَّةَ قَط	بِلُوحٍ فِي الرِّيحِ أَوْ كِرْبَالِ
فَأُنَادِي إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَا	فَأَقْبِضُوهَا بِطَارَةِ الزَّبَالِ

وفي هذه الأبيات يرسم لنا الشاعر صورة هذا الأمير الذي كان كلَّ همّه أن يطاع ولو

كان أمره خاطئاً .

فهو لا يقبل إلا أن تُنفَّذَ أوامره مهما كانت ، وفي ذلك يسخر ابن دانيال من أمر الأمير

القاضي بجمع الأموال مهما كانت طريقة الجمع بقوله : إن كان لا بد من ذلك فلتجمع بطارية

الزَّبَالِ ، مستخدماً هذا التعبير الساخر لخدمة غرضه .

(1) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 245 .

(2) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 197 .

كما سخر الشعراء من مجون السلاطين ولهوهم ، ومن ذلك قول أحد الشعراء في

السلطان حسن (1) والسخرية من حبه للنساء وشغفه بهن حيث يقول : (2)

لَمَّا أَتَى لِلْعَادِيَاتِ وَزُلْزِلَتْ حَفِظَ النِّسَاءَ وَمَا قَرَأَ لِلْوَاقِعَةِ
فَلَأَجَلَ ذَاكَ الْمَلِكُ أَضْحَى لَمْ يَكُنْ وَأَتَى الْقِتَالَ وَفُصِّلَتْ بِالْقَارِعَةِ
لَوْ عَامَلَ الرَّحْمَنُ فَازَ بِكَهْفِهِ وَبَنَصْرِهِ فِي عَصْرِهِ فِي السَّابِعَةِ
مَنْ كَانَتْ الْقَيْنَاتُ مِنْ أَحْزَابِهِ عَطَطَ بِهِ الدِّخَانَ نَارًا لَامِعَةً
تَبَّتْ يَدَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الدَّعَا فِي اللَّيْلِ إِذْ يَغْشَى يَقَعُ فِي النَّازِعَةِ

لقد تفنن هذا الشاعر في السخرية من السلطان ، مستعيناً بالسور القرآنية وأسمائها

ليعبّر عن سخريته .

وفي البيت الأول يذكر حفظ السلطان لسورة النساء ونسيانه لسورة الواقعة ، مُبَيَّنًا مَنْ

خلال هذه التورية بأسماء السور شغف السلطان بالنساء وحبه لهنّ ونسانيه لأخرته .

كذلك نرى السخرية واضحة في البيت الرابع حيث يجعل الشاعر من قينات السلطات

أحزاباً له .

وفي البيت الأخير يدعو الشاعر على هذا السلطان الذي لا يخشى عاقبة أمره .

وقد ذاق الناسُ من الأمراء كثيراً من النَّصَبِ وَالظُّلْمِ ، خصوصاً هؤلاء الذين

يتظاهرون بالتقوى والصلاح مُتستترين بهذه الطريقة عن جرائمهم ، يقول ابن الوردي في

ذلك: (3)

قَدْ عَجِبْنَا لِأَمِيرٍ ظَلَمَ النَّاسَ وَسَبَّحَ
فَهُوَ كَالْجَزَّارِ فِيهِمْ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَذْبَحُ

(1) هو الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، ولي الملك سنة 748هـ ثم خلع في سنة 752هـ ثم عاد سنة 755هـ ، وظل سبع سنين وخمسة أشهر إلى أن قُتِلَ ، ينظر : ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، 47.

(2) بردي ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، 316/10.

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 353.

فالشاعر يُجسّد المأساة التي كانت تعيشها العامة مع هؤلاء المماليك والناشئة عن
المفارقة بين أهدافهم وهي أهداف شرعية ، وبين وسائلهم لتحقيقها وهي وسائل لا يُقرّها
الشرع.(1)

وانتقد الشعراء كذلك الأوامر السلطانية الشديدة ، التي تلزم الناس بما لم يعهدوه ومن
ذلك ما حدث سنة 667هـ حيث " أمر الظاهر بيبرس (2) بإقامة الخمر وتبطيل المفسدات
والخواطيء بالديار المصرية ، وكتب بذلك إلى جميع بلاده ، وأمسك كاتباً يُقال له ابن
الكازاروني وهو سكران ، فصلبه وفي عنقه جرّة خمر " (3) فسخر ابن دانيال من ذلك
قائلاً: (4)

لقد كان حدّ السكر من قبل صلّبه خفيف الأذى إذا كان في شرعنا
فلما بدأ المصلوب قُلتُ لصاحبي جاداً
الأثب فإنّ الحدّ قد جاوز الحدّ لأجل الخمر تدخّل في القناني
وهكذا يُسجّل ابن دانيال واقعة التحريم وواقعة العقوبة ، بأسلوبه الفكاهي ، الذي لم يخلُ

من النكتة ومن النقد ، إذ ذكر أنّ العقوبة قد جاوزت الحدّ الذي رسمه الشرع".(5)

ومن هذا القبيل أيضاً بيتاه الآتيان : (6)

لقد منّع الإمام الخمرَ فينا وصيّرَ حدّها حدّ اليماني
فما جسرتْ ملوك الجنّ خوفاً لأجل الخمر تدخّل في القناني

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرباب الحرف ، 127 .

(2) تولى الملك الظاهر بيبرس الملك سنة 658هـ ، واستمر في الحكم إلى أن توفي سنة 675هـ ، حيث انتقل الحكم بعده إلى ابنه

السعيد ، ينظر : ابن زهير ، الفضائل الباهرة ، 43 .

(3) الحنبلي ، ابن عماد ، شذرات الذهب ، 564/7 .

(4) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 105 .

و حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 150 .

(5) سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 327/7 .

(6) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 53 .

مرّة أخرى ، يسخر من هذه العقوبة ، منقّها بأن ملوك الجنّ خافت من هذه العقوبة
وخوف خسارة الخمر وضياعه عليها ما لبثت أن دخلت في القناني .

ويقول الوراق في هذه الحادثة : (1)

شومٌ أمّ الخبائث الخمر شومٌ جاوزَ الحدَّ فاستمع ما يُعدُّ
فلها في الدنان حبسٌ وللرا ووق صلبٌ وللمعاقر جلدٌ⁽²⁾

ويتمكّه الشاعر ناصر الدين بن النقيب في هذه المناسبة بسخريته من إبليس حيث

يقول: (3)

منع الظاهر الحشيش مع الخمر فولّى إبليس من مصر يسعى
قال : مالي وللمقام بأرضٍ لم أمتّع فيها بماءٍ ومرعى

يسخر مورياً بقوله : " الماء والمرعى " يقصد الخمر والحشيش ، حيث منعهما

الظاهر في مصر مما أدى إلى رحيل إبليس منها خائباً حزيناً .

وللمعنى نفسه يشير القاضي ناصر الدين بن المنير بقوله : (4)

ليس لإبليس عندنا طمَعٌ غيرُ بلادِ الامير مأواه
منعته الخمر والحشيش معاً أحرمته ماءه ومرعاه

(1) الصفدي ، نصرّة الثائر على المثل السائر ، 112 .

(2) الدّن ما عظم من الرواقيد جمعه دنان ، وأما الراووق فناجود الشراب يصفى به ، أو الشار يتروق منه من غير عصر ، وأما المعاقر فهو المدمن على شرب الخمر ، ابن منظور ، لسان العرب ، المواد ، دَنن ، روق ، عَقَر .

(3) الكتبي ، ابن شاکر ، فوات الوفيات ، 245/1-246 .

(4) نفسه ، 246 .

ويسخر شاعر آخر من إبليس بحثه على ردّ الخمر وتوسيع الحيلة في ردّها ، وإلا

نفقت سوق المعاصي وضاع أمر إبليس ، يقول : (1)

الخمري يا إبليس إن لم تَقْمِ وتوسّع الحيلة في ردّها
لا نفقت سوق المعاصي ولا أفحيت يا إبليس بَعْدَهَا

وفي النهاية ينعى ابن دانيال موت إبليس ، وينعاه حدسه ، ساخراً متحسراً على خلو

مجالس الأُنس منه ، يقول : (2)

ماتَ يا قومُ شيخنا إبليسُ وَخَلا مِنْهُ رَبْعُهُ الْمَأْتُوسُ
وَنَعَانِي حَدْسِي بِهِ إِذْ تُؤْفِي وَلَعَمْرِي مِمَّا شَأُهُ مَحْدُوسُ

ومن هنا نرى كيف استقى الشعراء من هذا الأمر للسلطان الظاهر - القاضي بمنع

الخمر وغيرها من المفاسد - مادةً للسخرية حَوَّروها كيفما شاؤوا وانقلبوا فيها منقلباتٍ عدة حتى ضربوا بعصى الهجاء والسخرية إبليس شيخ المعاصي .

ويسخر الجزار من أمر الملك المعز أيبك (3) الذي جاء فيه منع أي امرأة الخروج بلا

سراويل ، فقال الشاعر : (4)

حَنَّا الْمَلِكَ الْمَعزَ عَلَى الرَّعَايَا وَأَلْزَمَهُمْ قَوَانِينَ الْمَرْوَةِ
وَصَانَ حَرِيمَهُمْ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَأَلْبَسَهُمْ سِرَاوِيلَ الْفِتْوَةِ

(1) الصفدي ، نصره الثائر على المثل السائر ، 258.

(2) حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 151.

(3) هو الملك المعز عز الدين أيبك الحاشنكير التركماني الصالحي ، وهو أول ملوك الترك ، ولي الملك سنة 652هـ ، وقد كان مستبداً بملكه ، ينظر ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، 44. و المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، 463/1.

(4) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، 487/1.

السؤال ، هل صان الملك الحريم من العار و صان كرامة رجالهم بإلزامهم قوانين المروّة ؟ هل كان الرعايا بلا مروّة حقاً ؟ كلا . إنها السخرية من هذا الأمر ومن هذا الملك الذي ظنّ أنه بهذا الأمر سيحمي النساء ويصونهن ويصون بذلك ماء وجوه الرعايا ويحفظ كرامتهم .

أما البوصيري ، فقد أصابَ حاكماً بالسخرية حين أمر هذا الحاكم بخلق نصف لحيّة كل من خرج عن طاعته (1) يقول في ذلك : (2)

وَالَّذِي حَلَقَ أَنْصَافَ اللَّحَى كَانَ فِي الْأَحْكَامِ عَدْلًا مُنْصِيفًا
حَلَقَ النُّصْفَ بِذَنْبِ حَاضِرٍ وَعَفَا بِالنُّصْفِ عَمَّا سَلَفَا

يصيب سهم السخرية الذي ألقاه الشاعر صميم حُكم هذا الحاكم الذي أمر بخلق أنصاف اللحي ، حيث يخرج الشاعر بتبريرٍ مضحكٍ ساخرٍ لهذا الأمر بإعتبار أن خلق نصف اللحية كان جزاء ما ارتكبه المحكوم عليهم بالإثم ، وترك النصف الآخر كان على سبيل العفو عما سلف من أعمالهم.

كُلّ ما سبق ، من ظلم المماليك وتعاليمهم على الشعب ، جعل بعض الشعراء يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء والشكوى طالبين منه الانتقام من هؤلاء الملوك والأمراء الظالمين المتعسّفين ، قانتين في صلواتهم عسى الله يُخلصهم منهم (3) ومن ذلك قول ابن الوردي في

(1) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 252.

(2) البوصيري ، بيوانه ، 158 .

(3) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، 167.

الأمير لؤلؤ القشندي (1) الظالم ، حيث يقول : (2)

قلبي لعمرُ الله معلولٌ بما جرى للناس مع لولو
يا ربُّ قدُ شرَّدَ عَنَّا الكرى سيفٌ على العالم مسلولٌ
وما لهذا السيفِ مِنْ مغمدٍ سواك يا مَنْ لطفهُ السولُ

كلمات مريرة تخرج من قلب الشاعر ينفثها غاضباً مبيناً مدى ظلم هذا الأمير الذي كان كالسيف الذي سلط على الناس ظلماً وفساداً وليس لهذا السيف من مغمد سوى الله الذي توجه له الشاعر بالدعاء طالباً منه الرحمة والخلص من هذا الأمير .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء ابن الوردي ، ولدعاء الناس فقبض على لؤلؤ (3)

وجُد بالسَّياط حتى مات ، فارتاح الناس منه ومن ظلمه فقال ابن الوردي شامتاً ساخرأً : (4)

أولؤُ قدُ ظلمتَ الناسَ لكنْ بقدرِ طلوعِك اتفقَ النزولُ
كبرتَ فكنتَ في تاجِ فلماً صغرتَ سحقتَ سنةً كلَّ لولو

اسمُ الأمير ، كان الطريق إلى هجائه والسخرية منه ، حيث بنى الشاعر موازنةً بين الاسم لؤلؤ واللؤلؤ المعروف ، فشبّه لؤلؤ الأمير حين علا منصبه وعظم باللؤلؤ الذي يُرصع التاج فيوضع على الرؤوس ، فإذا ما صغرُ سحقتُ تحت الأقدام وهذا ما حصل لهذا الأمير الذي ضاعت مكانته وانحطَّ قدره فصار تحت الأقدام ، وهذه سنة الحياة في المفارقة بين العظم

(1) هو بدر الدين لؤلؤ القشندي ، صار أميراً على حلب فظلم ، مما جعل الناس يدعون عليه في صلواتهم ، ينظر : ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، 428/2 و 464.

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 498.

(3) في عام 472هـ ، أي بعد عزل لؤلؤ القشندي ونفيه بعامين ، قبض عليه وعوقب بدار العدل بحلب حتى مات ، فشمت به الناس ، ينظر : ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، 428/2-464.

(4) ابن الوردي ، ديوانه ، 354.

المهانة ، ويشمت الشاعر من أمير آخر بقوله : (1)

مريدُ القضا بالقري له حلبٌ قاعدهُ (2)
فيطلعُ في ألفِه وينزلُ في واحدهُ

يشير الشاعر هنا إلى علو مكانة بعض الناس وارتقائهم المناصب الهامة من خلال الرشوة التي لا تقيهم زوال هذه المكانة ولا تصون وجوههم من المذلة بعد الرقعة . فهذا المهجو قد طلع في ألف دينار رشوة ولكنه سقط فجأة.

ويسخر الوداعي من الملك غازان (3) حيث يقول فيه عندما مات : (4)

قد ماتَ غازان بلا مريّة ولم يمّت في المدد الماضيّة
وكانت الأخبار وما أفصحت عنه فكانت هذي القاضيّة

يظهر من الأبيات السابقة أن أخباراً وشائعات دارت حول موت غازان أكثر من مرّة وتبيّن كذبها ، فيشمت الشاعر حين تأكد من موت الملك وكأنه يقول أخيراً هذي القاضيّة.

أما إبراهيم المعمار فيسخر من الأمير الظالم قوصون (5) الذي صُلب حيث يقول : (6)

شخصُ قوصون رأينا في العلايق مُسمّر
فُعجبنا منه لمّا جاء في التّسمير سُكّر (7)

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 336.

(2) المرید : الخبيث ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مرّد .

(3) هو غازان محمود بن أرغون اسمه محمود ، ويقوله الناس قازان ، كان جلوسه على الملك سنة 693هـ ينظر : العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 212/3.

(4) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 214/3.

(5) هو قوصون السامي الناصري ، كان نائباً للسلطنة في أيام المنصور واستمر في هذا المنصب أيام الاشراف كجك ، وقد استبد بتدبير السلطنة ، قتل في محبسه بالأسكندرية سنة 742هـ ، ينظر : العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 258/3.

(6) المعمار ، إبراهيم ، ديوانه ، ق 14.

(7) التّسمير : أسلوب من أساليب القتل ، فيه يحكم المصلوب عليه بالإعدام ، فتندق أطرافه بالمسامير على خشب مصلب ، ويبقى مسمراً حتى يموت ، يوسف ، خالد إبراهيم ، الشعر العربي أيام المماليك ، 542

" وهو يشير هنا إلى ما فعله العامة والحرفيون وصانعو الحلوى خاصةً ، الذين جعلوا تماثيل على هيئة قوصون من السكر وعلقوها على أبواب محلاتهم ، تشفياً منه وفرحاً بموته " (1).

كل ذلك من ظلم المماليك كما قلنا - جعل الناس يتشفون بموتهم ، مهنتين بعضهم بعضاً إذا ما قتل أحد البغاة أو عزل ، ومن ذلك قول ابن مطروح إثر عزل والٍ تبعه نزول المطر ، فسخر من ذلك مستغلاً الترابط بين الأمرين بقوله : (2)

وربَّ والٍ سَرَّنا عَزَلَه فبعضنا هَتَّاهُ البعضُ
قد واصلتنا السحب من بعده ولدَّ في أجفاننا الغمضُ
لو لم يكن من نجس شخصه ما طهرت من بعده الأرضُ

انظر إلى براعة هذا الشاعر في استغلاله لهذه الظاهرة الطبيعية وإبداعه في الربط بينها وبين تطهير الأرض من هذا الوالي الظالم .

ولكن في بعض الأحيان تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، و من ذلك أن يُسرَّ الناس بزوال دولةٍ ولكن سرعان ما يُبتلوا بأحسن منها ، وهذا ما جاء على ذكره البهاء زهير ، بقوله : (3)

دَوْلَةٌ كَمَ قَدْ سَأَلْنَا رَبَّنَا التَّعْوِيضَ عَنْهَا
وَفَرَحْنَا حِينَ زَالَتْ جَاءَنَا أَحْسُ مِنْهَا

(1) محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرباب الحرف ، 126..

(2) المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، 89-88/5.

(3) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 377.

ثانياً : السُّخْرِيَّة من موظفي الدولة :

لَمَّا كَانَ هناك من السلاطين والملوك في العصر المملوكي من هم فاسدون وظالمون ، فمن الطبيعي أن يسري السوء إلى بقية موظفي الدولة ، وينتشر بينهم ، ويصبح وجودهم لا يُحقق غايته (1) كيف لا ... والسلطان منصرفٌ عن متابعة عمله وتفقيشه ومراجعته ، والقيَم على أعماله هو المستخدم الذي أصبح بمثابة الرئيس الفعلي في تأدية أمور الحكم ، والمتصرف الأول فيما يعرض على رئيسه ، الأمر الذي أدى إلى الاضطراب والفساد . (2)

" وطبيعي أن يتفشى هذا الشره ، وتسري عداوة من الكبير إلى الصَّغير ، فيصبح كل من ولي أمراً من أمور الناس وقد أعمل يده في السلب والنهب مُستغلاً منصبه ، محتمياً به ، لا يردعه خلق ، ولا ترفعه همّة " . (3)

بناءً على ما تقدم ، من المؤكد أن القيم ستتهار ، والأخلاق والدين سيختفيان ليحلَّ محلُّهما الاستبداد والظلم وأكل الأخ لحم أخيه بلا رادع أو مانع ، يقول ابن دقيق العيد في هؤلاء الناس : (4)

هَوَيْتَ فِي الدِّينِ عَلَى الرَّاسِ	فَإِنْ تَخَالَطَ مِنْهُمْ مَعْشَرًا
يَحْسِبُ فِي الغَيْبَةِ مِنْ بَاسِ	يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ لَحْمَ بَعْضٍ وَ لَا
عَنْهَا وَ لَا حِشْمَةَ جُلَاسِ	لَا وَرَعٌ فِي الدِّينِ يَحْمِيهِمْ
مِنْ ذَلَّةِ الكَلْبِ سِوَى الخَاسِ	لَا يَعدِمُ الآتِي إِلَى بَابِهِمْ

صورة قائمة مريرة لهؤلاء الناس ، يخطُّها ابن دقيق العيد ساخراً من قلَّة ورعهم

وانعدام أخلاقهم مفضلاً البعد عنهم لأن من يُخالط معشراً منهم يهوي في دينه على الرأس .

(1) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ،

(2) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 245/7.

(3) أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في آدب العصر المملوكي الأول ، 135.

(4) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 204/4.

ولعلَّ أكثر الشعراء انتقاداً لموظفي الدولة ومستخدميها هو البوصيري ، الذي نظم

قصيدة فضَّحَ فيها موظفي الدواوين وغيرهم ، ومنها قوله : (1)

أَمَلَانَا الْوَزِيرَ عَفَلْتَ عَمَّا يَهُمُّ مِنَ الْكِلَابِ الْخَائِنِينَ

يصيب البوصيري بسهم هجائه وسخريته أمرين : الأول غفلة الوزير عن موظفيه ،

والثاني لؤم الكاتبين وأفعالهم ، فالشاعر هنا ينتقد سكوت الوزير عن هؤلاء اللئام الكاتبين ،

ويسخر من غفلته وعدم ضربه على أيديهم (2) ومن انتقاده لموظفي الدولة قوله : (3)

تَكَلَّمْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ قَلِمٌ أَرَّ فِيهِمْ رَجُلاً أَمِيناً
فَخُذْ أَخْبَارَهُمْ مَنِّي شِفَاهاً وَأَنْظِرْنِي لِأَخْبَرِكَ الْيَقِيناً (4)
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَبَيَّنْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عُمُرِي سِنِينَ

عمل البوصيري في الدواوين ، ومعاشرته للمستخدمين سنياً طويلاً ، جعلته يحفظهم

عن ظهر قلب ، لذلك فهو خيرٌ من يتحدث عنهم ويخبر أخبارهم ، فيقول بلسان الوثائق أن لا

أمين فيهم على الإطلاق لذلك يرى ألا يوثق بهم ، ويواصل هجومه عليهم منتقداً أفعالهم

ساخراً منها ، مؤكداً على ضرورة نزاهة أتباع المستخدم قبله لتأكيد عفته ، لأن العفيف لا

يرضى بالثراء المشبوه لأتباعه (5) يقول : (6)

فَلَا تَقْبَلْ عَفَافَ الْمَرْءِ حَتَّى تَرَى أَتْبَاعَهُ مُتَعَفِّفِينَ

(1) البوصيري ، ديوانه ، 251.

(2) ينظر : سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 237/7.

(3) البوصيري ، ديوانه ، 250.

(4) تضمين من بيت عمرو بن كلثوم : أبا هندٍ فلا تعجل علينا وأنظرنا نُخْبِرُكَ الْيَقِينَا . ابن كلثوم ، عمرو ، ديوانه، 82.

(5) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 243.

(6) البوصيري ، ديوانه ، 253.

ويتحدث عن الجبابة الذين يحصلون الضرائب ، فينهبون ويسلبون ، فيقول : (1)

أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَابَةٌ لَقَبُضٌ مُغْلَاهَا كَالْمُقْطَعِينَا

فهو يشبههم بقطاع الطرق الذين ينهبون مال غيرهم ، ويسرقون تعب الناس ورزقهم.

ثم يحدثنا عن ردة فعل الناس الذين صاروا يدفعون الرشاوى لهؤلاء الجبابة حتى لا

يسرقوهم ولكي يبتعدوا عنهم ، فأصاب الطمع قلوب الجبابة فَرابعوا الناس أو ناصفوهم رواتبهم

ومعاشتهم ، حتى أنهم كادوا يأخذونها كلها دون ترك شيء لأصحابها (2) فيسخر من هذا الأمر

سخرية مرة بقوله : (3)

**عَذْرُهُمْ إِذَا بَاعُوا حَوَالَا تِهِمْ بِالرُّبْعِ لِلْمُسْتَحْدِمِينَا
وَأَعْطَوْهُمْ بِهَا عَوْضًا فَكَأَنَّا لِنِصْفِ الرُّبْعِ فِيهِ خَاسِرِينَا**

فهو يعرض لنا خسارة العامة على أيدي الجبابة الطاغين ، ويلتفت البوصيري إلى

الجسم القضائي فيراه غارقاً في الضلال ، يقول في ذلك : (4)

**تَحَيَّاتِ الْقَضَاءِ فُخَانَ كُلُّ أَمَانَتُهُ وَسَمَوُهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهَ الْعَدْلَ ظَلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرَ سِوَى مِنْ مَعْشَرَ يَتَأَوَّلُونَا**

الخيبة في القضاة هي الأشدُّ إيلاماً على الإطلاق ، فمن المفترض أن يكونوا اليد التي

تكفّ المظالم عن الناس والتي تقيم العدل ، فإذا ظلموا ، فالمصيبة فيهم مضاعفة (5) لذلك لم

يتهاون البوصيري في فضح حقيقتهم وتمزيق ستار الورع والتقوى المزيف الذي يحتمون به ،

ولم يتورع في السخرية منهم ومن التناقض في شخصيتهم حيث يخفون عكس ما يظهرون ،

(1) نفسه ، 251.

(2) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 243.

(3) البوصيري ، ديوانه ، 251.

(4) نفسه ، 252.

(5) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 128.

فهم في جوهرهم أسوأ ما يكون ، خوثةً ظالمون مُبدلين للحقائق ، ولذلك أعظم مخاوف الشاعر هي منهم ، وبرأيه الخشية كل الخشية على أموال مصر من هؤلاء الكذبة الذين ينافقون ويتأولون .

وفي قصيدة أخرى له يسخر من الفوضى في الدواوين ، حيث الجميع قد غيروا

القوانين ، يقول : (1)

انظرُ بحَقِّكَ في أمرِ الدَّواوين فالكلُّ قد غَيَّرُوا وضعَ القوانين
لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عَلَى ما كُنْتَ تَعْهَدُهُ إِلَّا تَغَيَّرَ مِنْ عَالٍ إِلَى دُونِ
الكَاتِبُونَ وَلَيْسُوا بِالْكَرَامِ فما مِنْهُمْ عَلَى الْمَالِ إِنْسَانٌ بِمَأْمُونِ

ويحثُّ في القصيدة نفسها السلطان على عدم إئتمان هؤلاء المستخدمين السارقين

بقوله: (2)

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى الْأَمْوَالِ سَارِقِهَا وَلَا تُقَرِّبْ عَدُوَّ اللَّهِ وَالِدَيْنِ
في كثيرٍ من الأحيان يكون " حاميتها حراميتها " (3) لذلك يجب الحرص من هؤلاء

الذين يفترض بهم الحماية والحراسة فيسرقون ما يحرسون .

وقد سخر البوصيري من المحتسب الذي يتولى أمر كتابة الحساب عند الباعة مستعديباً

بالله من أن يكون مثله بقوله: (4)

أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ كَمَنْ تَعْلِبُهُ فِي الرَّقَاعَةِ الرَّعْبَةِ
يمشي بها والصَّغَارُ تُنْشِدُهُ: أَمِيرُنَا زَارِنَا بِلَا رُكْبَةَ
وَمَا يَزَالُ الْعُلَامُ يَتَّبِعُهُ بِدَرَّةٍ مِثْلَ رَأْسِهِ صُؤْبَةَ
وَهُوَ يَقُولُ : افْسَحُوا لِمُحْتَسِبِ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ دِمَشْقَ فِي عُلْبَةٍ

(1) البوصيري ، ديوانه ، 259.

(2) نفسه ، 261.

(3) حجازي ، أحمد توفيق ، موسوعة الأمثال الفلسطينية ، 151.

(4) البوصيري ، ديوانه ، 55.

فهو يصور لنا دخول المحتسب السوق ساخراً من هيئته ودخوله واحتشاد الصغار حوله منشدين زيارته بلا ركبته وتتبع بعضهم له وإفساحه المجال له ، كل ذلك بأسلوب ساخرٍ كله تهكم .

ويكمل الشاعر موضحاً رأيه بهذا المحتسب بقوله : (1)

قلت لهم : عند صاحبي حمقٌ في كل حين يُلقِيهِ في نُكْبَةٍ
حصلاً مالاً جمّاً وعدده من أصل مال الزكاة والوهبة⁽²⁾

فهو يسخر من هذا المحتسب الذي يسرق الأموال تحت اسم الزكاة والهبات ، فيجمعها ويحصل مالاً وفيراً أصله مال حرام وسرقة .

وسخر ابن الوردي من محتسبٍ مثلما سخر سابقه مُبيناً استغلاله للباعة وسرقاته

بقوله : (3)

تولى الناس محتسبٌ غليظٌ فقامت للغلا في السوق سوقُ
ولو عزلوه جاء الرخصُ يسعي إذا عزل الغليظُ أتى الدقيقُ
يتهم الشاعر المحتسب في البيتين السابقين برفع السلعة أو المساعدة على رفع الأسعار

بوسيلةٍ ما⁽⁴⁾ للكسب من وراء ذلك ، فيدعو إلى عزله بأسلوبٍ فكه ساخر .

ويتحدث ابن الوردي عن الرشوة فيخاطب من وصل إلى منصبه بالرشوة قائلاً : (5)

نحن قومٌ ما ولينا بالرشاشا مثل فعالك
بل بعلمٍ واجتهادٍ وما أشبه ذلك

(1) نفسه ، 55-56.

(2) أخذ البوصيري هذا المعنى من قوله تعالى : " %\$ " " %\$ " سورة الهمزة ، آية 2.

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 277.

(4) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن الممالك في حلب الشهباء ، 167.

(5) ابن الوردي ، ديوانه ، 278.

ويظهر أنّ الرشوة تحوّلت إلى أتاوةٍ دورية لضمان استمرارية الإنسان في عمله ، فمن
بيدل أكثر يكون أحق بالولاية ، هذه هي المعادلة ، فقال ابن الوردي في شخصٍ لم يقبل إعطاء
الرشوة ، فكان مصيره العزل ، رابطاً الأمر بعلم النحو ربطاً طريفاً (1) بقوله : (2)

عزّلوك لَمَّا قَلتَ ما أعطي وولّوا مَنْ بَدَلْ
أو ما علمتَ بأنَّ "ما" حرفٌ يكفُّ عن العملِ

أما ابن النقيب فيوجه سخريته نحو الوزير نفسه ، و يطلق هذه السخرية سافرةً بدون

خوف أو حذر ، بقوله : (3)

أبلم قلّده أمر الرعايا وهو في حيلة الوزارة عطل
فهو بالبوق في الوزارة طبلٌ وهو في الدست حين يجلس سطل

ويقول في ناظرٍ : (4)

قالوا : فلانٌ ناظرٌ فأجبتُ ما ناظرٌ إلا إلى أعطافه
لم يدر مسح الأرض قلت أزيدكم أخرى ولا مسحاً على أطرافه

هنا يسخر الشاعر من رقلة دين الناظر المتمثلة بعدم معرفته طريقة الوضوء واهتمامه

بمظهره الخارجي .

(1) ينظر : نفسه ، 167 .

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 149 .

(3) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 327/1 .

(4) نفسه ، 326/1 .

الفصل الخامس

السُّخْرِيَّةُ لِأَسْبَابِ دِينِيَّةٍ فِي الشَّعْرِ

تمهيد .

- أولاً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ سَلُوكِيَّاتِ الْمُتَصَوِّفَةِ .
- ثانياً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ التَّطَاوُلِ عَلَى الشَّرِيعَةِ .
- ثالثاً : السُّخْرِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ .

جعل الشعراء من السُّخرية مهاداً وطريقاً سلكوه للإفصاح عن مكنوناتهم ، وللتنفيس عما يدور ويجول في خواطرهم ، وهم بعينهم الناقدِ ولسانهم السليق وقلوبهم المتوقدة وأذهانهم المنفتحة كانوا أقدر الناس على كشف العيوب وفضح المفايد والردائل .

وفي مجال البيئة الدينية في العصر المملوكي ، كان هناك الكثير مما يُقال ، فأطلق الشعراء العنان لألسنتهم في فضح ما وراء الستار الديني وإجلائه أمام ناظر الناس أجمعين .

ومن المذاهب التي سخر منها الشعراء سنتحدث عن المتصوفة .

ومن الفئات سنلقي الضوء على السُّخرية على من تطاول على الشريعة الإسلامية السّمة .

ومن الطوائف سنتحدث عن سخرية الشعراء من أهل الذّمة ، والمستخدمين من الأقباط.

وفيما يلي بيانٌ لذلك :

أولاً : السُّخرية من المتصوفة :

ازدهرت حركة التصوف في الدول المملوكية ، والحقيقة أن المماليك قد روجوا لهذا التيار واحتفوا به ، فأسسوا لهم المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف ، ولكن ذلك لم يكن في زهادةٍ منهم في شيء ، وإنما هو صرفٌ للناس عن الدنيا ليستأثروا بها وحدهم .⁽¹⁾

(1) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 164 .

وقد تنبّه فريقٌ من الشعراء لما يرمي إليه المماليك فسخروا منهم ، ومن ذلك قول

محمد بن أحمد الاسكندراني المعروف بابن الفويه حيث يقول : (1)

أعجائنا قد أصبحت قلوبهم وجداً بحبّ الخانقات خافقه(2)
لا تعجبوا فكلّ كلبٍ نابح ولا يحبُّ الكلب إلا خانقه

يسخر الشاعر من اهتمام المماليك الأعاجم بالمتصوفة ووجدتهم وحبهم لخانقاتها ،

ويزيد من سخريته ببناء تورية في كلمة " خانقه " حين يقول لا يحب الكلب إلا خانقه وفيها

يسخر من الطرفين : الأعاجم والمتصوفة .

ومن الشعراء من اتهم المتصوفة بالكفر والزندقة ورماهم بالبطالة والفساد والكسل ،

ومنهم من رماههم بسهامه فأوسعهم سباً وسخريةً (3) وذلك ما نراه عند فتح الدين ابن سيد

الناس الذي رماههم بفاحش القول ، وهجاهم شر هجاء بقوله : (4)

ما شروط الصوّفي في عصرنا اليو م سوى ستة بغير زياده
وهي ... (5) العلوّق والسُّكر والسط لة والرقص والغنا والقياده

يسرد لنا الشاعر الشروط الواجب توافرها فيمن يلتحق بالمتصوفة أو يكون منهم ،

وهي صفات موهلة في الفحش ، كل صفة أنكى من الأخرى .

ويكمل قوله : (6)

وإذا ما اهتدى وأبدى اتحاداً وجميلاً من خلوةٍ وأعادهُ
وأتى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخُ الشيوخ ذو السجاده

(1) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 154/2 .

(2) الخانقاه : رباط الصوفية ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة خَنَقَ .

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 15 .

(4) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 291/3 .

(5) يصعب ذكر الكلمة لشدة فحشها .

(6) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 291/3 .

ويرى محمود رزق سليم أن الشاعر جعل المتصوفة في هذين البيتين أنكى من اقترف الخطايا والمنكرات ، حيث يبذلون الحيلة في تسويغها عقلاً ونقلاً ، ويعتبر أن هذه هي الهوة الأظلم التي قد يطيح بها المرء بنفسه ، ولكن هكذا كان وما زال يدين بعض مُدعي المتصوفة وزاعميها . (1)

وقد اشتد المعمار في مهاجمة المتصوفة الذين كان من المفترض بهم استقبال المحتاجين في خانقاتهم ، ولكن بعضهم لم يفعل ذلك ، فكانوا يأوون من يروق لهم (2) فيقول: (3)

قد صار في الخانقاه عُرفاً من فعلهم وهو شرُّ عادة
لا يدفعون النصيب فيها إلا لمن ترك الشَّهادة
ويتحدث عن يدعون العبادة والزهادة بقوله : (4)

فلانٌ والجماعة عارفوه وإن أبدى العبادة والزَّهادة
يموت على الشهادة وهو حيٌّ إلهي لا تُمتَه على الشَّهادة
وفي مثل هذا القول يصفهم البهاء زهير بقوله : (1)

كَمْ أَناسٍ أَظْهَرُوا الزُّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنِ حَلالٍ وَحَرَامٍ
قَلَّلُوا الأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرَعاً وَاجْتَهَاداً فِي صِيامٍ وَقِيامٍ
ثُمَّ لَمَّا أَمَكَّتْهُمْ فُرْصَةٌ أَكَلُوا أَكْلَ الحِزائِي فِي الظلامِ

هنا يفضح البهاء زهير حقيقة هذه الفئة من الزهاد المتصوفة فيبين أن علينا أن لا نغتر بظاهر أعمالهم من الاجتهاد في الصيام والقيام لأنهم ما أن يخنفوا عن أنظار العامة فإنهم يأكلون أكل الحزاني في الظلام ، أي يأكلون بشراهة .

(1) ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، 257/7 .

(2) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 134 .

(3) ابن المعمار ، إبراهيم ، ديوانه ، ق 10 .

(4) نفسه ، ق 10 .

ولربما كان الورع وإظهار التقوى يومئذٍ وسيلةً يتّخذها البعض ستراً لبلوغ أهدافهم

وللوصول إلى آمالهم في الحياة . (2)

ويصف الشاعر ابن تيمية المتصوفين بأهل الكسل فيقول ساخراً على لسانهم : (3)

والله ما فقرنا اختياراً وإنما فقرنا اضطراراً
جماعةً كأننا كُسالى وأكأننا مالاه عياراً
تسمع منا إذا اجتمعنا حقيقةً كلها فشاراً

يعزي الشاعر فقر المتصوفة إلى كسلهم وكثرة أكلهم ، ويشير إلى ما هم عليه من

كذب وادعاء في قوله إن كلامهم كله فشار ، يسوق كل ذلك على لسانهم بأسلوب هزلي

ساخر.

ويتهكم بهم جوبان القوّاس ، ويورد بعض تعابيرهم الخاصة بهم والتي لا يفهمها

العامّة ، مُنتهياً إلى أنهم أنفسهم لا يفهمون ما يقولون (4) يقول في ذلك : (5)

مُتُّ في عشقي ومعشوقي أنا ففؤادي من فراقي في عَنَّا
غبتُ عني فمتى أجمعني أنا من وجدي مني في فَنَّا
أيها السّامع تدري ما الذي قلت : والله ولا أدري أنا

تتشابك الألفاظ ، وتمتزج الصّور ، ويتوحد القائل والمخاطب ليصبحا شخصاً واحداً

يُجري حواراً مع نفسه عن نفسه ، ينطق بالنهاية معترفاً بعدم درايته وفهمه لما يقول ، فكيف

من يسمعه !؟

(1) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 238.

(2) ينظر : بدوي ، أحمد أحمد ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، 283.

(3) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 80/1.

(4) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 134.

(5) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 305/1.

أما ابن دانيال فيسخر من المتصوفة بأسلوبه ، حيث يعاتب صديقاً له تصوّف ويطالبه

بالعدول عن هذا الأمر ومن ذلك قوله : (1)

لا تَقُلْ قَدْ لَبَسْتُ صَوْفاً فَإِنَّ
يُطْرَبُ الضَّانَ وَهُوَ مِثْلُكَ فِي الْأَلْ
طَارَ مِنْكَ الْمَقْصُوصُ فِي حَلْقِكَ الرَّأ
الكِبْشَ حَلْبَابُهُ مَعَ الْقَرْنِ صَوْفاً
حَانَ أَسْمَاعُ قَوْمِهِ وَالْخُرُوفُ
سَ لَزُهُدٍ وَفَاتَكَ الْمَنْتُوفُ

ثم يترجاه العودة بقوله : (2)

أَتَرْجَى مِنْكَ الرَّجُوعَ قَرِيباً
طَمَعاً فِيكَ وَالْمَحَبَّ عَطُوفاً

ويطالبه بالرجوع إلى قومه الخالعين الماجنين بقوله : (3)

قُمْ تَوَكَّلْ عَلَى الْغُفُورِ وَوَأْفِقْ
فَلَدِيهِمْ خَاءٌ وَمِيمٌ وَرَاءُ
قَوْمِكَ الْخَالَعِينَ يَا قِصِيفُ (4)
أَي شَيْءٍ بِاللَّهِ هَذِي الْحُرُوفُ

وقبل ختام حديثنا عن السخرية التي لحقت بالمتصوفة ، لعلّ من الإنصاف أن نعكس

رأي المتصوفة في الفقهاء وذلك على لسان البوصيري الذي يقول : (1)

قُلْ لِلَّذِينَ تَكْفَرُوا زِيَّ التُّقَى
لَا تَحْسَبُوا كُحْلَ الْعُيُونِ بِحِيلَةٍ
مَا النَّحْلُ دَلَّتِ الْهَدَايَةَ سُبُلَهَا
وَتَخَيَّرُوا لِلدَّرْسِ أَلْفَ مُجَلَّدٍ
إِنَّ الْمَهَا لَمْ تَكْتَحِلْ بِالِإْتِمَادِ
مِثْلَ الْحَمِيرِ تَقُودُهَا لِلْمُورِدِ

يعرض البوصيري للمفارقة بين المتصوفة وغيرهم ممن يُعَادِيهِمْ فَالنَّحْلُ الَّتِي ذَلَّلَ اللَّهُ

لها سبل الهداية ليست كمثل الحمير التي تُقَادُ إِلَى الْمُورِدِ دُونَ أَنْ تَعْرِفَ طَرِيقَهَا .

ثانياً : السُّخْرِيَّةُ مِنَ التَّطَاوُلِ عَلَى الشَّرِيعَةِ :

يظهر في كلِّ عَصْرِ مِنَ الْعُصُورِ مِنَ يَرْتَدُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ أَوْ يَسْتَهْتَرُونَ بِبَعْضِ

أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ ، وَيَجَاهِرُونَ فِي ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ حَيْثُ ظَهَرَ مِثْلُ

(1) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 86 .

(2) نفسه ، 85-86 .

(3) نفسه ، 87 .

(4) القصيف من القصف وهو الخلاعة والمجون ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قَصَفَ .

هؤلاء بكثرة ، ما دفع كثير من الشعراء إلى الوقوف في وجوههم وصدّهم ، وفضح توجهاتهم، وقد تناولوا ما كانوا يقومون به بسخرية ومن ذلك ما قيل في ابن البقي (2) رجل تناول على الشريعة وأنكرها حتى وصلَ به الأمر إلى الكفر بها(3) فسئل ابن دانيال سيف هجائه السّاحر وقال فيه : (4)

لا تُلَمَّ البَقِيَّ فِي فِعْلِهِ إِنَّ زَاغَ تَضْلِيلًا عَنِ الْحَقِّ
لَوْ هَدَّبَ النَّامُوسُ أَخْلَاقَهُ مَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى الْبَقِّ

يبني الشاعر صلة بين اسم مهجوهٍ والحشرات المؤذية المعروفة بالبق ليبين لنا استحالة تهذيب نفس هذا الشخص الذي لا يلومه الشاعر لزوغانه عن الحق لأنه أساس البق.

ولمّا سجن القاضي المالكي هذا الكافر سخر منه ابن دانيال مرّة أخرى بقوله : (5)

يَظُنُّ فِتَى الْبَقِّيِّ أَنَّهُ سَيَخْلُصُ مِنْ قَبْضَةِ الْمَالِكِيِّ
نَعْمُ سَوْفَ يُسَلِّمُهُ الْمَالِكِيُّ قَرِيبًا وَلَكِنْ إِلَى مَالِكِ

وهناك صنفٌ من الناس من يدّعي معرفة الفلسفة ، ويتعمّق فيها ، فيوصله ادعاؤه إلى إنكار الخالق - سبحانه وتعالى - حيث يعتمدون في فلسفتهم على المعقول لا المنقول (6) فسفه البهائم زهير ممن يدعي العلم والفلسفة وسخر ممن يكفر بالرحمن بقوله : (7)

وَجَاهِلٍ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فِلْسَفَةَ قَدْ رَاحَ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ تَقْلِيدًا
وَقَالَ : أَعْرَفُ مَعْقُولًا فَقُلْتُ لَهُ عَنَيْتَ نَفْسَكَ مَعْقُولًا وَمَعْقُودًا

(1) البوصيري ، ديوانه ، 97-98.

(2) هو أحمد بن محمد فتح الدين بن البققي الحموي ، أقام بمصر وكان متستخفاً بالقرآن والشعر فضرِب القاضي المالكي عنقه سنة 701هـ ، ينظر : الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 152/1.

(3) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 33.

(4) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 153/1.

(5) نفسه ، والصفحة نفسها .

(6) ينظر : بدوي ، أحمد أحمد ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، 283.

(7) البهائم ، زهير ، ديوانه ،

مِنَ أَيِّنَ أَنْتَ وَهَذَا الشَّيْءَ تَذَكَّرُهُ أَرَأَيْكَ تَقْرَعُ بَاباً عَنْكَ مَسْدُودَا
فَقَالَ : إِنَّ كَلَامِي لَسَتْ تَفْهَمُهُ فُقُلْتُ لَسْتُ سُلَيْمَانَ ابْنَ دَاوُدَا

يصف الشاعر هذا الداعي بالجاهل ، ويحاوره ويناقشه في مسألة الاعتماد على

المعقول فيحوّر الشاعر في الكلمة ليجعل معناها معقوداً وبها يعني هذا الشخص الكافر فهو

معتقلٌ رهين أفكاره الزائفة وحبيسها وفي النهاية يجعل الشاعر في عدم فهمه لكلام هذا الداعي

من هذا الأخير حيواناً ، وللأسف ، فإن الشاعر ليس سيدنا سليمان وبالتالي لن يفهم كلام

الحيوان .

ثالثاً : السخرية من أهل الذمة :

ساد جوٌّ من التوتر العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة طوال العصر المملوكي ، ومن العوامل التي ساعدت على خلق هذا التوتر الحروب الصليبية ، وما ارتكبه الصليبيون من أهوال ، جعلت مشاعر المسلمين تفيض بالمرارة ، وبالتالي خلق ردّ فعلٍ عنيفٍ تجاه أهل الذمة في بلادهم . (1)

ومن هنا جاء دور الشعراء الذين هبّوا بأشعارهم يهجون الأقباط هجاءً لاذعاً ، وخيرُ مثالٍ على هؤلاء الشعراء البوصيري الذي كان شعره صفحةً انطبعت فيها مشاعره ومشاعر المسلمين نحو أهل الذمة (2) ويقول في قصيدة له : (3)

إِنَّ النَّصَارَى بِالْمَحَلَّةِ وَدُهُمُ لَوْ كَانَ جَامِعُهَا يَكُونُ كَنِيْسَا(4)
أَثْرَى النَّصَارَى يَحْكُمُونَ بِأَثَرِهِ مَنْ بَاشَرَ الْأَحْبَاسَ صَارَ حَبِيْسَا

حيث يبين الشاعر لولي الأمر وحاكم البلاد خبث النصارى ، ويدخل إلى سرائر نفوسهم ليبين ماهية تفكيرهم ومدى كرههم للإسلام فهم يتمنون أن تتحول المساجد في المحلة إلى كنائس .

وبعد هذا التوضيح يرجو الشاعر ولي الأمر بصرفهم وعدم استخدامهم بقوله : (5)

صَرَفَ إِلَهَ السُّوءِ عَنْكَ بِصَرْفِهِ فَاصْرِفْهُ عَنَّا وَاصْفَعْ الْقِسْيَا
أَفْدِي بِهِ الْمُسْتَخْدَمِينَ وَإِنَّمَا أَفْدِي بِتَيْسٍ كَالْيَهُودِ تَيْوسَا
لَوْ كُنْتُ أَمَلِكُ أَمْرَهُمْ مِنْ غَيْرَتِي لَمْ أَبْقِ لِلْمُسْتَخْدَمِينَ ضَرْوسَا

ويفسّر لماذا يريد صرفهم وعدم إبقاء أحدٍ من مستخدميهم بقوله : (1)

(1) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 209 .

(2) ينظر : الفقي ، محمد كامل ، الأدب في العصر المملوكي ، 136 .

(3) البوصيري ، ديوانه ، 152 .

(4) المحلة : مدينة مشهورة بالديار المصرية ، الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، 135/5 .

(5) البوصيري ، ديوانه ، 152 .

يَرَعُونَ أَمْوَالَ الرَّعِيَّةِ بِالْأَذَى
لَوْ يُحِبُّونَ لِأَشْبَهُوا الْجَامُوسَا
سُوسَا وَقَدْ أَمِنُوا عَلَيْهَا السُّوسَا

يسخر البوصيري من المستخدمين من أهل الذمة ويشبههم بالسوس ، وهل يُعقل إنتمان

السوس على أقوات الناس!؟

ولم يكن البوصيري الشاعر الوحيد الذي ضاق باستخدام أهل الذمة ، فالعطار يهجو

المستخدمين ويسخر ممن استخدمهم بقوله : (2)

قَالُوا : نَرَى الْأَقْبَاطَ قَدْ رَزَقُوا
حِظًّا وَأَضْحُوا كَالسَّلَاطِينِ
وَعَلَّلُوا الْأَمْوَالَ قَلْتُ لَهُمْ
رِزْقَ الْكِلَابِ عَلَى الْمَجَانِينِ

ويرسم الأعرج السَّعْدِي لَوْحَةً بَيَانِيَةً بَيِّنُ فِيهَا تَقْسِيمَاتِ الْأَمْوَالِ فِي مِصْرَ ، وَهِيَ

بِرَأْيِهِ كَمَا يَلِي : (3)

وَكَيْفَ يَرُومُ الرِّزْقَ فِي مِصْرَ عَاقِلٌ
وَمَنْ دُونَهُ الْأَتْرَاكُ بِالسِّيفِ وَالنَّارِ
وَقَدْ جَمَعْتَهُ الْقَبْطُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
لَأَنْفَهَسَ بِالرَّبِّيعِ وَالنَّمْنِ وَالخَمْسِ
فَللْتَرِكَ وَالسَّلْطَانَ نِصْفَ خَرَاجِهَا
وَللْقَبْطِ نِصْفًا وَالخَلَائِقِ فِي السُّدُسِ

يشير الشاعر إلى طمع الأقباط ، وإلى قلة حظ الناس في أموال بلادهم وهم الأحق

بها، لذلك يستغرب العيش في مصر ويرى أن لا عاقل يروم الرزق فيها لأن حظَّه في الرزق

سيكون قليلاً .

ويرسم لنا البوصيري مشهداً يصور فيه الأطماع التي تدور حول الصراع الديني

حيث يقول : (4)

يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَنَا حُقُوقُ
بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْأَخِينَا
وَقَالَ الْقَبْطُ إِنَّهُمْ بِمِصْرَ
الْمُلُوكِ وَمَنْ سِوَاهُمْ غَاصِبُونَا

(1) البوصيري ، ديوانه ، 152-153 .

(2) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 207/1 .

(3) نفسه ، 356 / 1 .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 252 .

وَحَلَّتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ لَهُمْ مَالِ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينَ
 ولم يسخر البوصيري من استخدام أهل الذمة وأطماعهم في مصر فحسب ، بل سَلَطَ
 سخريته نحو معتقداتهم ومفاهيمهم ، كل ذلك في قصيدة سماها " المخرج والمردود على
 النصارى واليهود " يقول في مطلعها : (1)

جاءَ الْمَسِيحُ مِنَ الْإِلَهِ رَسُولًا قَوْمٌ رَأَوْا بَشَرًا كَرِيمًا فَادَّعَوْا
 فَأَبَى أَقْلُ الْعَالَمِينَ عُفُولًا مِنْ جَهْلِهِمْ لَلَّهِ فِيهِ حُلُولًا
 يفنّد الشاعر هنا فكرة ألوهية سيدنا عيسى ، واصفاً النصارى بالحماقي

لتصديقهم هذا الإدعاء ، مُبدياً دهشته من هذه الفكرة ، مؤكداً عدم صدقها بقوله : (2)

أَسْمِعْتُمْ أَنَّ الْإِلَهَ لِحَاجَةٍ وَيَنَامُ مِنْ تَعَبٍ وَيَدْعُو رَبَّهُ
 يَتَّأَوَّلُ الْمَشْرُوبَ وَالْمَأْكُولًا وَيَرُومُ مِنْ حَرِّ الْهَجِيرِ مَقِيلًا
 وينتقل الشاعر من فكرة ألوهية عيسى إلى فكرة التثليث ، ساخرًا من منطق

النصارى، متسائلاً عن طبيعة هذا الإله المركب وماهيته (3) يقول : (4)

ضَلَّ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَأَقْسَمُوا جَعَلُوا الثَّلَاثَةَ وَاحِدًا وَلَوْ اهْتَدَوْا
 لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الرَّشَادِ سَبِيلًا لَمْ يَجْعَلُوا الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلًا
 ويقول في قصيدة أخرى : (5)

لَيْتَ شِعْرِي ذِكْرُ الثَّلَاثَةِ وَالْوَا كَيْفَ وَحَدَّثْتُمْ إِلَهًا نَقَى التُّو
 حَدِ نَقْصٌ فِي عَدِّكُمْ أَمْ نَمَاءٌ بِاللَّهِ لِدَاتِهِ أَجْزَاءُ
 وينتقل الشاعر للسخرية من اليهود بقوله : (6)

لَا تُكْذِبْ إِنَّ الْيَهُودَ وَقَدْ رَا عُوا عَنِ الْحَقِّ مَعْشَرٌ لُؤْمَاءُ

(1) نفسه ، 163 .

(2) نفسه ، 166-167 .

(3) ينظر : أمين ، فوزي محمد ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول ، 227 .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 168 .

(5) البوصيري ، ديوانه ، 26 .

(6) نفسه ، 28 .

ويأتي على ذكر عبادتهم العجل بقوله : (1)

قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ وَاتَّخَذُوا الْعِجْلَ
لِأَلَّا يَنْهَكُوا عَنْهُمُ الْغُلُوبَ (2)

ويقول في موضع آخر : (3)

وَالْعَابِدُونَ الْعِجْلَ قَدْ فَتِنُوا بِهِ
وَدُّوا اتِّخَاذَ الْمُرْسَلِينَ عَجُولًا

فهو يعرض لعبادتهم العجل ويسخر من سفه عقولهم التي سوّغت لهم هذا الأمر.

ومن جوانب السخرية من النصارى واليهود سخرية الشاعر أحمد بن يوسف الطيبي

منهم حين ألزموا بلبس العمام الملونة ، حيث يقول : (4)

لَا تَعْجَبُوا لِلنَّصَارَى وَالْيَهُودِ مَعًا
كَأَنَّمَا بَاتَ بِالأَصْبَاعِ مُنْسَهلاً
وَالسَّامِرِيِّينَ لَمَّا عَمَّمُوا الْخِرْقَا
نَسْرَ السَّمَاءِ فَأَضْحَى فَوْقَهُمْ دَرَقَا

(1) نفسه ، الصفحة نفسها .

(2) قال تعالى : " وَالْيَهُودُ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سُبُحًا " سورة النساء ، آية 153 .

(3) البوصيري ، بيوانه ، 169 .

(4) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 343/1 .

الدّراسة الفنّية

أولاً : النّعة .

ثانياً : الأسلوب .

ثالثاً : الصّورة الشعريّة .

رابعاً : الإيقاع .

أولاً : اللُّغة :

تعدّ اللُّغة اللبنة الأساسية للأسلوب الأدبي (1) وتشكيلها أمرٌ مهمٌ في بناء هذا الأسلوب (2) لذا لا بُدُّ للشاعرِ أو الأديب من تخيّر ألفاظه وتجويد صناعتهَا ، فاللفظ جِسْمٌ ، روحه المعنى ، يقوى بقوّته ، ويضعف بضعفه ، فإذا سلم المعنى واختلَّ اللفظ كان ذلك نقصاً للشعر ، كالجسم الذي تعثر به بعض العلل ، فأبي اختلالٍ في اللفظ يؤدي إلى اختلالٍ في المعنى. (3)

واللُّغة الشعرية مُلتصقة تماماً بطبيعة الشاعر وروحه ، والعلاقات التي يُقيمها بين مفردات اللُّغة تعكس صورة العلاقات في العالم الذي أوجده . (4)

ولذلك فقد مال شعراء السخرية إلى العامية في مواقفهم السّاخرة لأن الموقف يقتضي ذلك في بعض الأحيان ، ومن ذلك قول الوراق في شخصٍ أنشده شعراً فلم يعجبه فسخر منه بقوله : (1)

أَنشَدَنِي شِعْراً بِهِ ظَنَنْتُ فَاهُ مَبَعِراً
وَقَالَ لِي كَيْفَ تَرَى قُلْتُ أَرَى مِثْلَ الْخَرَى

حيث يستخدم في نهاية البيت الثاني كلمة عامية قبيحة .

وقد ذكر ابن دانيال هذه الكلمة في سخريته من بخيلٍ حيث قال له : (2)

(1) ينظر : ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، 200/1 .

(2) ينظر : مندور ، محمد ، الأدب وفنونه ، 37 .

(3) ينظر : ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، 200/1 .

(4) ينظر : أدونيس ، زمن الشعر ، 235 .

تَبَاخَلَتْ حَتَّى صِرَتْ أَصْفَرَ مُنْتَأً فَكُنْتَ جَدِيراً أَنْ تُلْقَبَ بِالْخِرَا
وله أيضاً في تصوير نفسه وبيان قبح رائحة فمه إذا ما تحدّث مع صورته في الماء
قوله : (3)

إِذَا مَا ابْتَدَانِي بِالْحَدِيثِ حَسِبْتُهُ تَسَوَّكَ مِنْ فَرْطِ النَّتُونَةِ بِالْخِرَا
حيث يشبه رائحة فمه بهذه الرائحة الكريهة التي ذكرها في آخر بيته .

وبالعودة إلى الوراق نراه يسخر من الصَّيْرِ وعواقبه مستخدماً ألفاظاً عامية بقوله : (4)

عَوَاقِبُ الصَّبْرِ فِيمَا قَالَ أَكْثَرُهُمْ مَحْمُودَةٌ قُلْتُ : أَخْشَى أَنْ تُخْرِينَا
وقد نشد الشعراء في سخرياتهم الوضوح والانسجام ، بقدر ما تسعفهم به ثقافتهم
وموهبتهم ، فوصلنا منهم شعر جميل بسيط (5) ألفاظه بعيدة عن الحوشي والتعقيد ، ومعانيه
واضحة سهلة الفهم والاستيعاب .

ومن ذلك قول الجزّار : (6)

كَيْفَ لَا أَشْكُرُ الْجَزْرَةَ مَا عِشْتُ حَفَازاً وَأَرْفَضُ الْآدَابَا
وَبِهَا أَضَحْتُ الْكَلَابَ تُرْجِينِي وَبِالشَّعْرِ كُنْتُ أَرْجُو الْكَلَابَا
لغة الجزّار كما هو واضح من الأبيات السابقة سهلة تميل إلى العامة ، وهذا طبيعي

يرجع إلى نشأته حيث إنه تربى بين طبقة العامة في الفسطاط لزمه . (7)

(1) العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، 332.

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 246.

(3) نفسه ، 175.

(4) الصفدي ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، 265/1.

(5) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصنّاع وأرياب الحرف ، 362.

(6) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 316/1.

(7) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 296/1.

ونلاحظ السهولة والوضوح كذلك عند ابن دانيال الذي اتبع هذا الأسلوب ، حيث لا نجد في أشعاره ألفاظاً غريبة ، وكأنه حاول أن يجعلها قريبة قريباً شديداً إلى عامة أهل القاهرة لزمانه (1) ومن ذلك قوله في نعي إبليس : (2)

ماتَ يا قومُ شيخنا إبليسُ وَخَلا مِنْهُ رَبُّعُهُ المائوسُ
وَعَاني حَدي بِه إِذْ تُوقِي وَلَعَمري مَماثُلهُ مَحَدوسُ

ولتوخي السهولة قام الشعراء بصياغة شعرهم الساخر في مقطعات قصيرة لطيفة ،

ليؤمنوا لها السيرورة و الانتشار ، وليسهل حفظها لتحقيق الأغراض التي قيلت من أجلها. (3)
حيث نلاحظ في شعر السخرية أن معظمه تقريباً جاء في مقطعات منفردة في بيتين أو ثلاثة ، ولربما أرادوا أن يقولوا شيئاً فاكتفوا بهذا القدر لأن حاجتهم قد استنفذت خلال هذه الأبيات القليلة . (4)

(1) ينظر : ضيف ، شوقي ، تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات ، 382.

(2) حمادة ، إبراهيم ، خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال ، 151.

(3) ينظر : الهيب ، أحمد فوزي ، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، 178.

(4) ينظر : عبد الهادي ، حسن ، دراسة شعر شمس الدين النواحي ، رسالة دكتوراه ، 260.

وهناك ظاهرة برزت لدى شعراء السُّخرية تكمن في استخدام ألفاظ الحرفة ومصطلحاتها وتسخيرها لخدمة أغراضهم السَّاخرة فكل شعراء الحرف تقريباً أتوا على ذكر حرفهم ومن ذلك قول الجزّار : (1)

خَلِي فَوَادِي وَلِي فَمُ وَسِيحٌ كَأَنِّي فِي جَزَارَتِي كَلْبِي
وقوله : (2)

أَصَبْتُ لِحَاماً وَفِي الْبَيْتِ لَا أَعْرِفُ مَا رَائِحَةَ اللَّحْمِ
أما ابن دانيال فيذكر حرفته بقوله : (3)

يَا سَائِلِي عَنْ حِرْفَتِي فِي الْوَرَى وَضِيْعَتِي فِيهِمْ وَإِفْلَاسِي
مَا حَالُ مَنْ دَرَهُمْ إِنْفَاقُهُ يَأْخُذُهُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ
ويذكر الشعراء الحرف وألفاظها ساخرين منها مثل قول الشعراء في وصف الحمام ،

وأذكر منهم ما قاله ابن الوردي في حمام وقيمه : (4)

حَمَّامُكُمْ قِيَمُهُ شَاطِرٌ هَرَبْتُ مِنْهُ وَأَنَا صَارِخٌ
قَدْ سَلَخْتُ جِسْمِي أَظْفَرُهُ يَا قَوْمُ هَذَا الْأَسْوَدُ السَّالِخُ
وقد استخدم الشعراء بعض الألفاظ الأعجمية والمعربة والدخيلة " ووجود هذه الألفاظ

أمر طبيعي ، لأنه لا بُدَّ أن يتأثر المرء بألفاظ غريبة كهذه الألفاظ الشائعة في عصره والمستخدمة بين العوام " .

(1) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 316/1 .

(2) نفسه ، 317/1 .

(3) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 92 .

(4) ابن الوردي ، ديوانه ، 205 .

ومن الأمثلة على هذه الألفاظ في شعر السخرية : الطيلسان والجُوخة والصّرناج

ومن ذكره الطيلسان بمعنى الثوب ما قاله الجزار : (1)

ومن الزّمهريّ إذا حدّث الغيمُ ثيابي وطيلساني هَوَاءُ
وقوله : (2)

غَيْرُ خَافٍ عَنكَ الَّذِي نَالَهُ الْأَسْوَدُ بِالْأَمْسِ مِنْ نَدَى السُّلْطَانِ
وَتَمَشَّيْهِ بِالْعَمَامَةِ وَالثُّوبِ وَمَنْدِيلِ الْكُفِّ وَالطَّيْلَسَانَ
ومن ذكر الجوخة بمعنى ثوب من الصوف قول الوراق : (3)

هَذَا وَجُوخَتِي الزَّرْقَاءُ تَحْسَبُهَا مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي سَرْدٍ وَإِثْقَانِ
ومن ذكر الصرناج بمعنى آلة موسيقية قول السراج المحار : (4)

شَبَّهَتْ أَنْمَلَهَا عَلَى صِرِنَاجِهَا وَقَبِيحٍ مَبْسَمَهَا الشَّنِيْعِ الْأَبْخَرِ
بِخَنَافِسٍ قَصَدَتْ كُنَيْفًا وَاعْتَدَتْ تَسْعَى إِلَيْهِ عَلَى خِيَارِ الشَّنْبَرِ

أما الضرائر أو الضرورات الشعرية التي قد يلجأ لها الشاعر لأنها تُعدّ من الممكنات التي أتيح له استخدامها دون غيره ، كصرفٍ لممنوعٍ من الصرف ، أو مدِّ لمقصورٍ وقصرٍ لممدودٍ وغيرها فنلمحه في شعر السخرية كذلك .

(1) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 309/1 .

(2) الصفدي ، نصرّة الثائر على المثل السائر ، 327 .

(3) الصفدي ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، 145/1 .

(4) العباسي ، إبراهيم ، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، 106/2 .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن دانيال : (1)

إِذَا أَرْمَدًا وَافَاهُ يَشْكُو تَأْلَمًا مِنْ الْعَيْنِ دَاوَى الْعَيْنِ كَالضَّرْسِ بِالْقَلْعِ
فهنا صرف كلمة " أرمد " وهي ممنوعة من الصرف .

ومن ذلك قول البوصيري : (2)

وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرٍ سِوَى مِنْ مَعْشَرَ يَتَأَوَّلُونَا
حيث صرف كلمة " مصر " وهي ممنوعة من الصرف .

ومنه قول ابن الوردي : (3)

لَا تَصْحَبِينَ أَعْوَرًا وَإِنْ تَتَّاهَى زَيْنُوهُ
فقد صرف كلمة " أعور " وهي ممنوعة من الصرف .

ومن الضرائر التي وجدت في شعر السخرية كذلك قصر الممدود في مثل قول ابن

دانيال : (4)

وَنَابِحٌ قَدْ افْتَرَى تَشْبُهًا بِالشُّعْرَا
فهنا أتى بكلمة " شعرا " بدل شعراء .

وقوله كذلك : (5)

أَوْ مَاذَا الشِّتَا أَتَانِي وَفَوْقِي جُبَّةٌ قَدْ لَبَسْتُهَا مِنْ جِلْدِي
حيث قال " الشتا " بدلاً من الشتاء .

(1) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 141 .

(2) البوصيري ، ديوانه ، 267 .

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 268 .

(4) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 141 .

(5) نفسه ، 238 .

وعلى سبيل ذلك أيضاً قول ابن الوردي : (1)

أحلّ الضيوفَ على سطحه وفرّجهم في نجوم السما
وقطّع بالجوع أكبادهم "وإن يستغيثوا يغاثوا بما"
فجاء بكلمتي " السّما وبما " والأصل السماء والماء .

ومنه قول الجزار : (2)

أعملُ في اللحم للعشاءِ ولا أنالُ منه العشا فما ذنبي
فقد أتى بكلمة " العشا " بدل العشاء .

ومن الضرورات التي لجأ إليها الشعراء كذلك تخفيف همزة القطع ، في مثل قول ابن

دقيق العيد : (3)

فإن تخالط منهم مَعْشراً هَوَيْتَ في الدّين على الرّاس
يأكلُ بعضهم لحمَ بعضٍ و لا يَحْسِبُ في الغيبة من باس
حيث خفف الهمزة في كلمتي " الراس والباس " وهما في الأصل الرأس والبأس .

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 284 .

(2) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 316/1 .

(3) الصفي ، الوافي بالوفيات ، 204/4 .

ثانياً : الأسلوب :

ليس الأسلوب إلا وسيلةً من وسائل نقل المعاني ، وجودته قد ترقى بالمعاني فتخرجها

في كل شكل يدعو إلى الإعجاب . (1)

والأسلوب ليس المعنى وحده ولا اللفظ وحده ، إنما هو مركب من عناصر مختلفة

يستمدّها الفنان من ذوقه (2) ومعنى هذا أن عناصر الأسلوب كل لا يتجزأ ، ومن المعروف أن

هذا الأسلوب ، يصير صفة من صفات الإنسان الشخصية . (3)

ولكل شاعر أسلوب في اختيار ألفاظه وتأليف الكلام والفكرة والصورة (4) والصورة

من أهم ما تنتهي إليه الأساليب الفنية خصوصاً عندما تكون مصحوبة بموسيقا اللفظ وجمال

التعبير، وبالحركة التي تعدّ أهم العناصر التي يجب أن تتوافر في النص الشعري ، ذلك لأنّ

الشعر يصف الجمال وهو في حالة حركة ، أي يصف سحره وأثره ، ولا يصف الجمال

السّاكن. (5)

ويمكن القول : إن الأسلوب ليس مجرد طريقة للكتابة ، فهو مرتبط عند كل كاتب

بالإلهام الخاص الذي يدعو إلى الكتابة فيصبح متّصلاً بالتفكير والشعور (6) فالأديب يختار

طريقة التعبير التي تتلاءم مع عواطفه ومشاعره وأحاسيسه جميعاً (7) ومن هنا كان الأسلوب

(1) ينظر : أمين ، أحمد ، النقد الأدبي ، 74/1 .

(2) ينظر : طبانة ، بدوي ، البيان العربي ، 287 .

(3) ينظر : أمين ، أحمد ، النقد الأدبي ، 130/1 .

(4) ينظر : طبانة ، بدوي ، البيان العربي ، 287 .

(5) ينظر : السّمرّة ، محمود ، النقد الأدبي والإبداع في الشعر ، 52 .

(6) ينظر : اسماعيل ، عز الدين ، الأدب وفنونه ، 28 .

(7) ينظر : عبد الرحمن ، منصور ، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، 189 .

نتيجة لعوامل خفية وبيئة خلقت في الشعراء حالات ومشاعر دفعتهم لاتباع طرق معينة للوصول إلى أغراضهم .

فسخرية الجزار والوراق وابن دانيال وغيرهم من شعراء الطبقة الفقيرة كانت نتيجة لإحساسهم بالفهر والظلم ، فلم يتبعوا أسلوب القدامى من الوقوف على الأطلال أو النسب وغيره بل لجأوا إلى المقطعات الشعرية ، يقول محمد زغلول سلام عن السراج الوراق : " إن السراج أكثر توفيقاً في مقطعاته الشعرية من القصائد ، لم يكن بالشاعر المجيد إذا قصد ، وإنما مقطوعاته تجري لطيفة يسيرة . (1)

وقد اتسم الطابع العام للشعر المملوكي بالميل إلى السهولة فألفاظ الشعراء سهلة واضحة قريبة من الفهم والاستيعاب بعيدة عن التعقيد ، ويرى عبده قليقله أن الأسباب وراء ذلك ناجمة عن بعد العهد بين شعراء العصر المملوكي عن العصر الجاهلي ، وهو عصر غرابة اللغة وقوتها وفصاحتها ، ويرى أن هناك سبباً آخر هو ضعف الثقافة اللغوية لدى شعراء المماليك (2) كما أن الشعراء كانوا يخاطبون في أشعارهم الطبقة العامة ، فالجزار له أسلوب من أسهل الطرق التي يميل لها العامة ولا ينكرها الخاصة لقرب مأخذها وحسن منزعها . (3)

(1) الأدب في العصر المملوكي ، 157/2 .

(2) ينظر : النقد الأدبي في العصر المملوكي ، 281 .

(3) ينظر : ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 296/1 .

والمقطوعات الشعرية الساخرة للجزّار تَسَطَّعَ بالبساطة والرقّة ، خصوصاً عند

سخريته من زوجة أبيه ، يقول : (1)

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةَ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتَهَا فِي مَا جَسَرَتْ تَبَصَّرَهَا الْجَنُّ
الـ وَشَعْرَهَا مِنْ حَوْلِهَا قَطْنٌ
كَأَنَّهَا فِي فَرَشِهَا رَمَّةً فَقُلْتُ : مَا فِي فَمِهَا سِنٌ
وَقَائِلٌ قَالَ : فَمَا سِنُّهَا

فهو يسخر من هذه المرأة بأسلوب سهل ليس فيه غرابة أو تعقيد .

أما البوصيري ، فقد اتّسم شعره السّاحر أيضاً بالسهولة التي تتجلّى في سهولة لفظه

والسماحة في تراكيبه والقرب في معانيه التي تدلُّ على خفة ظلّه وحلاوة معشره (2) ومن ذلك

ما نراه في قوله على لسان فتاة راودها عن نفسها ، يقول : (3)

أَهْوَىَّ وَالْمَشْيِبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَالنَّصَابِي بَعْدَ الْمَشْيِبِ رُغُونُهُ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ إِنَّ حُبِّي لَا يَدْخُلُ الْقَتِيئَةَ
كَيْفَ أَعْصِي الْهَوَىَّ وَطِيئَةَ قَلْبِي بِالْهَوَىَّ قَبْلَ آدَمَ مَعْجُونُهُ

" من الملاحظ على هذه الأبيات سهولة الأسلوب ، والميل إلى التراكيب الشعبية ، وما

يجري على أسنة العامّة من الأمثال والعبارات ، وهذه الملاحظة تنطبق على معظم شعره

الذي جنح فيه إلى الدّعابة والسّخرية ، شأنه في ذلك شأن رجال عصره " . (4)

(1) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 293/13 . و البيهقي ، ذيل مرآة الزمان ، 64/4 . و الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 292/4 .

(2) ينظر : أبو علي ، نبيل خالد ، البوصيري ، شاهد على العصر المملوكي ، 84 .

(3) البوصيري ، بيوانه ، 267 .

(4) أبو علي ، نبيل خالد ، البوصيري ، شاهد على العصر المملوكي ، 79 .

أما في النقد التهكمي ، فإن البوصيري أكثر إجادةً فيما يتعلّق بسبك المعاني ، وتخيّر الألفاظ اللينة والتراكيب السهلة التي تتناسب مع أفهام عامة الشعب ، وتتجلّى براعته في ستر مشاعره الساخطة بغطاء رقيق من التندرّ والسخرية ، نلمح ذلك في حديثه عن قوم حُكم عليهم بأن تحلق نصف لحية كلّ منهم (1) حيث يقول : (2)

ثُمَّ قَالُوا عَن دُقُونِ حُلِقْتَ	قُلْتُ لَا بَدَّ لَهَا أَنْ تُخْلَقَا
إِنَّ حَلْقَ الدَّقْنِ خَيْرٌ لِلْقَتَى	يَا بَنِي الْأَعْمَامِ مِنْ أَنْ تُنْتَفَا
وَالَّذِي حَلَقَ أَنْصَافَ اللَّحَى	كَانَ فِي الْأَحْكَامِ عَدْلًا مُنْصِفَا
حَلَقَ النَّصْفَ بِدُئِبٍ حَاضِرٍ	وَعَفَا بِالنَّصْفِ عَمَّا سَلَفَا

أما ابن دانيال ، فمن الطبيعي أن يكون أسلوبه في مقطعاته الشعرية الساخرة سهلاً قريباً من العامة ، حيث أنه كان يصرّ في شعره الساخر الهزلي بعض أحداث عصره المتصلة بحياة الناس إتصالاً مباشراً . (3)

ومن ذلك نظمه في حادثة تبطيل المفسدات وإراقة الخمر ، حيث يقول : (4)

لَقَدْ كَانَ حَدُّ السُّكْرِ مِنْ قَبْلِ صَلْبِهِ	خَفِيفَ الْأَدَى إِذَا كَانَ فِي شَرْعِنَا
فَلَمَّا بَدَأَ الْمَصْلُوبُ قُلْتُ لِصَاحِبِي	جَا _____ دَا
	أَلَا تُبْ فَإِنَّ الْحَدَّ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَا

(1) ينظر : أبو علي ، نبيل خالد ، البوصيري ، شاهد على العصر المملوكي ، 85-86 .

(2) البوصيري ، ديوانه ، 175 .

(3) ينظر : سلام ، محمد زغلول ، الأدب في العصر المملوكي ، 168/2 .

(4) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 105 .

ومع صفي الدين الحلّي ، نجدُ نفوراً من اللفظ الغريب النَّابي ، ونلاحظ دعوةً إلى الأنيس المتحضر ، وهو في هجائه يتوخّى السّخرية والتطريف أكثر من الهجاء والتشفي ، ففي هجائه لبخيل يصلُ الحلّي في سخريته إلى مرتبة رفيعة من التّصوير الخاطف (1) يقول : (2)

لا يَعْرِفُ الحَمَّامَ لَكِنَّهُ في البَيْتِ يَحْمِي المَاءَ في
الشمس
إذا رأى في قدره لَحْمَةً تَلا عَلَيْهَا آيَةَ الكُرْسِي

فهذه صورة فنية متناهية الغرابة ، ولكنها في أصلها وطبيعتها متناهية البساطة

والواقعية . (3)

أما عن الوسائل والأساليب التي استعان بها شعراء السخرية عامة فأهمّها :

1- أسلوب الأمر :

ويُقصد به طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام ، والاستعلاء هو أن ينظر الأمر على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه سواء أكان أعلى منزلة أم لا ، وأحياناً يخرج الأمر عن معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى يُستدل عليها من السياق ، ومن هذه المعاني الإهانة والتحقير (4) وفي شعر السخرية أراد الشعراء الهبوط بالمهجو وأذيته واستفادوا من أسلوب الأمر ، كقول

(1) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 190 .
(2) الحلّي ، صفي الدين ، ديوانه ، 518 .
(3) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 190 .
(4) ينظر : عتيق ، عبد العزيز ، علم المعاني ، 81-83 .

ابن دانيال : (1)

عَضُدِ الْبُلْهِ عُمْدَةَ الْفُجَّارِ
وَلَهُ مِنْ قُرُونِهِ كَالصَّوَارِي

قُلْ لِقَاضِي الْفُسُوقِ وَالْإِدْبَارِ
وَالَّذِي قَدْ عَدَا سَفِينَةَ جَهْلِ

وفي قول البهاء زهير : (2)

أرى مَنْظَرَ رَكِّ الوَعْرَا

أرْحَنِي مِنْكَ حَتَّى لَا

وقول شمس الدين بن الصائغ : (3)

يُرِيدُ لَكَ الْخِيَانَةَ كُلَّ سَاعَةٍ

تَجَنَّبُ كُلَّ أَقْطَعٍ فَهُوَ لِيصُّ

2- أسلوب النَّفْيِ :

وفي هذا الأسلوب يتم نفي الصفات الحسنة عن المهجو وإثبات نقيضها كقول البهاء

زهير في هجاء فرس والسخرية منها : (4)

وي كُأْهَهَا مُحْتَوِيَاً
وَاحِدَةً مُسْتَوِيَاً

وَقَرَسَ عَلَى الْمَسَا
وَلَيْسَ فِيهَا خُصْلَةٌ

وقوله في هجاء رجلٍ أسود : (5)

له زفرةٌ من شرِّه وشواظ

وأسود ما فيه من الخير خُصْلَةٌ

ومنه هجاء مجاهد بن سلميان الخياط للجزار بقوله : (6)

بِفُطْنَةٍ عِنْدَهُ وَكَئِيسٍ
وَلَيْسَ يَخْشَاهُ غَيْرَ تَيْسٍ

إِنْ تَاهَ جَزَارُكُمْ عَلَيكُمْ
فَلَيْسَ يَرْجُوهُ غَيْرَ كَلْبٍ

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 161 .

(2) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 143 .

(3) بردي ، ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، 196/8 .

(4) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 395 .

(5) نفسه ، 191 .

(6) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 101/1-102 .

ومن أمثلته قول البوصيري في هجاء بعض الرعا عاثوا فساداً في زمانهم ،
واصفاً سوء أخلاقهم نافياً عنهم لا صفات الخير فقط ، بل العروبة والتحضر أيضاً ،

بقوله: (1)

عَصَتْ عَلَيْهِ أَنْاسٌ لَا خَلَقَ لَهُمْ
تَلْتَمُّوا ثُمَّ قَالُوا إِنَّا عَرَبٌ
وَلَا عَهْدَ لَكُمْ تُرَعَى وَلَا ذِمَّةً
الشُّؤْمُ شَيْمَتْهُمْ وَاللُّؤْمُ وَالذَّبْرُ
فَقُلْتُ لَا عَرَبٌ أَنْتُمْ وَلَا حَضْرُ
وَلَا بِيُوتُكُمْ شَعْرٌ وَلَا وَبَرُ

(1) البوصيري ، ديوانه ، 138-139.

3- أسلوب الشرط :

وقد جاءَ الأسلوب موائماً للتَّهكُّم والسَّخريَّة ومنه قول الشاعرِ صفي الدين الحلبي في

وصفِ سارقٍ بارع ، حيث يقول : (1)

لَو عَايَيْتَ مُقَاتِلَهُ دُخْنَةً لَأَسْتَرِقَ الْأَبَّ مِنَ الْقِشْرِ
وَلَوْ فَلَاحَا بَعْدَهُ نَاقِدٌ لَمْ يَرِ فِيهَا أَثَرَ الْكَسْرِ

وقول ابن دايغال ساخرًا من نفسه : (2)

أَنَا لَوْ رُمْتُ لِلْعَلَّاجِ طَبِيبًا مَا تَعَدَّيْتُ سَكَّةَ الْبِيطَارِ

ومنه قول الجزار في وصف نفسه في الشتاء : (3)

لَوْ تَرَانِي فِي الشَّمْسِ وَالْبَرْدِ قَدْ أَنْحَلْتُ جِسْمِي لَقُلْتُ إِنِّي هَبَاءُ

4- أسلوب الطباق :

وهو الجمع بين الشيء وضده (4) أو الجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل ،

ويقصد به عدم الإتيان بأسمٍ مع فعلٍ ولا بفعلٍ مع اسم . (5)

ومن الأمثلة عليه قول البوصيري : (6)

مِنْ لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ إِنْ شَاتَمُوا وَمِنْ حَقَارَتِهِمْ إِنْ قَاتَلُوا خَسِرُوا
رَبِحُوا

(1) الحلبي ، صفي الدين ، ديوانه ، 645 .

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دايغال ، 164 .

(3) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 309/1 .

(4) ينظر : العسكري ، الصناعتين ، 316 .

(5) ينظر : محمود ، شهاب الدين ، حسن التوسل إلى صناعة الترسيل ، 200 .

(6) البوصيري ، ديوانه ، 117 .

فالتطابق بين كلمتي " ربحوا وخسروا " وهو تطابق إيجاب ويقصد به الجمع بين لفظتين

تضادَ معنَاهُمَا وكلاهُمَا مثبت . (1)

ومن الأمثلة عليه أيضاً قول البهاء زهير في السخرية ممن يدعون الزهد بقوله : (2)

كَم أَنَاسٍ أَظْهَرُوا الزُّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنِ حَلَالٍ وَحَرَامٍ
فالتطابق بين كلمتي " حلال وحرام " .

ومنه قول ابن الوردي في السخرية من مغنية قبيحة الشكل ولكن صوتها جميل ، حيث

يقول : (3)

غَنِيَتِ سَافِرَةً لَهُمْ فُقْلُوبُهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعِيُونُهُمْ فِي نَارٍ
فقد تطابق الشاعر بين كلمتي " جنة ونار " .

وقوله أيضاً في السخرية من أعورين : (4)

أَعُورٌ بِالْيَمَنِ إِلَى جَنْبِهِ أَعُورٌ بِالْيَسْرِى قَدْ انْضَمَا
فالتطابق بين كلمتي " باليمنى وباليسرى " .

(1) ينظر : العاكوب ، عيسى ، وآخر ، الكافي في علوم البلاغة العربية ، 568/2.

(2) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 238.

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 391.

(4) نفسه ، 239.

5- أسلوب المراجعة أو الحوار :

وهو الإتيان بحوار يقول فيه أحدٌ شيئاً ويقول الآخر شيئاً يردُّ عليه (1) ويقول ابن أبي الإصبع : " يُفَضَّلُ أَنْ يَكُونَ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَرْشَقِ سَبْكٍ وَأَسْهَلَ أَلْفَافٍ ، إِمَّا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ أَوْ فِي أَبْيَاتٍ أَوْ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ " (2) وشيوع الحوار يجعل من الشعر قصة يمكن تخيلها ويساعد على إبراز المعنى الساخر الذي يُريده الشاعر ، ومنه قول الوراق : (3)

قَالَتْ : جَمَعْتَ لِفَاقَةٍ كَسَلًا
فَأَجَبْتُ هَلْ تَدْرِينِ لِي سَبَبًا فَقَا
فَانْهَضْ وَقُمْ وَاذْأَبْ لِهِمَّ الْعَائِلَه
لَتِ لَا وَلَا وَتَدَا وَهَذِي الْفَاصِلَه
ومنه أيضاً قول البوصيري : (4)

وَيَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمَ أَخْتَهَا
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النَّسَا
قَوْمِي اطْلُبِي حَقَّكَ مِنْهُ بِلَا
قَالَتْ لَهَا : مَا عَادَتِي هَكَذَا
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً
وَالْأَخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَّةِ
وَصَبْرَهَا مِنْ عَالِي الْغَيْثَةِ
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا غِرَّةَ
تَخْلَفُ مِنْكَ وَلَا فُتْرَةَ
فَإِنَّ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَةَ
طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَةَ

ونراه أيضاً قد بنى حواراً طريفاً بينه وبين بغلة فسخر على لسانها من صاحبها

بقوله: (5)

قَالَتْ الْبَغْلَةُ الَّتِي أَوْقَعَتْهُ
قَلْتُ مَا تَكْرَهِينَ فِيهِ؟ فَقَالَتْ :
أَنَا مَا لِي عَلَى الْعُبُونِ مَرَارَةَ
أَيُّ بُخْلٍ فِيهِ وَأَيُّ قَتَارَةَ
6- أسلوب السرد القصصي :

(1) ينظر : الحموي ، ابن حجة ، خزائن الأدب ، 99 .

(2) تحرير التحبير ، 590 .

(3) الصفدي ، الغيث المسحوم في شرح لامية العجم ، 265/1 .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 119 .

(5) نفسه ، 99 .

" وفيه يكون الشاعر هو الراوي ، حيث ينقل بمفرده ما يجري ولا يخرج لغة الخطاب

من زمامه ، وفيه يصور الأحداث ويسجلها " (1) وخير مثال على ذلك قول البوصيري في

وصف حال عائلته : (2)

يا أيها المولى الوزير الذي
ومن له منزلة في العلا
إليك تشكوا حالنا إننا
صاموا مع الناس ولكنهم
إن شربوا فالبنر زير لهم
لهم من الخبيز مسلوقة
أقول : مهما اجتمعوا حولها
وأقبل العيد وما عندهم
أيامه طاعة أمرة
تكل عن أوصافها الفكرة
عائلة في غاية الكثرة
كانوا لمن يبصرهم عبرة
ما برحت والشربة الجرة
في كل يوم تشبه النشرة
تنزهوا في الماء والخضرة
قمح ولا خبز ولا فطرة

ونجد هذا الأسلوب في وصف بعض الشعراء لمساكنهم التي تدل على فقرهم وضيق

حالهم ، ومنهم ابن دانيال الذي رسم لبيته صورة ساخرة مضحكة ، بقوله : (3)

أصبحت أفقر من يروح ويغتدي
في منزل لم يحو غيري قاعداً
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة
تلقى على طراحة في حشوها
ما في يدي من فاقتي إلا يدي
فمتى رقدت رقدت غير ممدد
ومخدة كانت لأم المهدي
قمل شبيه السمسم المتبدد

(1) عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، الجامعة الأردنية ، 241.

(2) البوصيري ، بيوانه ، 110-111.

(3) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 154.

ويقول في القصيدة نفسها : (1)

والفارُ يركضُ كالخيولِ تَسَابِقاً من كُلِّ جَرْداءِ الأديمِ وأجرَدِ
يَأْكُلْنَ أخشابَ السَّقوفِ كمثلِ فَا راتِ النَّجَارَةِ إِذْ تُحَكُّ بِمِبْرَدِ
وتَرى الخنافسَ كالزَنوجِ تصفقتُ من كُلِّ سِوداءِ الأديمِ وأسودِ

7- أسلوب النداء :

سَخَّرَ بعض الشعراء أسلوب النداء لخدمة سخريتهم ، إذ جعلوا من المنادى عَرْضَه لهذه السخرية ومجالاً للتهكم .

ومنه قول مجاهد الخياط في الجزار : (2)

أبَا الحسِينِ تَأَدَّبُ ما الفخر بالشعر فخرُ
وما تَبَلَّلتِ مِنْهُ بقطرةٍ وهو بحرُ

وقول ابن الوردي في مخاطبة سُكَّانِ مصر : (3)

ساكني مصرَ أينَ ذاكَ التَّائِي والتَّابِي ومالكُمُ عنهُ عذرُ
يخسرُ الشَّخْصُ مالهَ ويقاسي تعبَ الدهرِ والولايةَ شهرُ

ومن الأساليب الأخرى كذلك استخدام " كم الخبرية " خصوصاً التكنيرية ، ومن ذلك

قول الخياط الدمشقي : (4)

كم تُظهِرُ الحُسْنَ البديعِ وتَدَّعي وبياضَ وجهك في التَّواظِرِ مُظْلِمُ

فهو أراد التكنير والمبالغة في السخرية من خلال التكنير والمبالغة في ادعاء هذا

المهجو الحسن والتقوى باستخدامه كم الخبرية التكنيرية .

ومنها قول البوصيري : (1)

(1) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 155 .

(2) الصفدي ، نصره الصائر على المثل السائر ، 331 .

(3) ابن الوردي ، ديوانه ، 491 .

(4) العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، 302/4 .

وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهَ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينًا
وكأن حالات جعل الفقيه للعدل ظلماً وتصيره الباطل حقاً مبيناً كثيرة جداً بحيث لا تعد

ولا تحصى .

فنون بديعية أخرى :

(أ) التورية :

" وهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان ، أو حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويوري عنه بالمعنى القريب ، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك" (2).

وقد كانت التورية من المحسنات البديعية التي أُلِع بها الشعراء ، فتهافتوا عليها ،

وتباروا فيها ، حتى اعتبروا الإحسان فيها مقياس نبوغٍ وعبقرية (3).

(1) البوصيري ، ديوانه ، 252.

(2) الحموي ، ابن حجة ، خزنة الأدب ، 184/3.

(3) ينظر : الفقي ، محمد كامل ، الأدب العربي في العصر المملوكي ، 141.

وقد تطورت التورية حتى أصبحت مذهباً شعرياً يجب أن يتحلّى به كل شاعر وناثر وإلا عُدَّ مقصراً ، مما دفع الشعراء إلى الإكثار منها ، حتى أصبحت غرضاً بحدّ ذاتها ، يُعمل الشاعر من أجلها شعوره وفكره . (1)

وقد أولع شعراء السخرية بالتورية ووظفوها لخدمة أغراضهم ، فالتورية من أقرب أنواع المحسنات البديعة والزخارف اللفظية لمادة الفكاهة ، لما تتضمنه من عنصر المفاجأة والاستضراب وتداخل المعاني وفي أكثر الأحيان بشكل ساخر (2) ، ومن ذلك قول الوراق في بخيلٍ أضافهم ، فسخر منه ومن بخله بقوله : (3)

وأَحْمَقُ أَضَافُنَا بِبِقْلِهِ نَسْبَةٌ بَيْنَهُمَا وَوَصْلُهُ
فَمَنْ أَقَلُّ أَدَباً مِنْ سُقْلِهِ قَدْ مَدَّ فِي وَجْهِ الضِّيُوفِ رِجْلَهُ

التورية في كلمة "رجله" إذ ذكر المعنى القريب "القدم" وأراد المعنى البعيد "نوع من النباتات يُسمى البقلة" .

ويتلاعب الشاعر نفسه بلقبه قاصداً إلى الإضحاك بقوله : (4)

شعريتي مُذ رمدت قد حبست طرفي عنكم فصرتُ محبوسا
الحمدُ لله زادني شرفاً كنت سراجاً فصرتُ فائوسا

التورية في كلمة "سراج" حيث ذكر المعنى القريب "ما يُسْتَنْضَاءُ به" وأراد المعنى البعيد "لقبه" .

(1) ينظر : باشا ، عمر موسى ، أدب الدول المتتابعة ، 452 .

(2) القشطيني ، خالد ، سجل الفكاهة العربية ، 114 .

(3) الحموي ، ابن حجّة ، خزانة الأدب ، 246 .

(4) نفسه ، 244 .

ومن هذا القبيل ما قاله مجاهد الخياط في الجزار : (1)

إِنْ تَاهَ جَزَارُكُمْ عَلَيْكُمْ بِفِطْنَةٍ عِنْدَهُ وَكَئِيسٍ
فَلَيْسَ يَرْجُوهُ غَيْرَ كَلْبٍ وَلَيْسَ يَخْشَاهُ غَيْرَ تَيْسٍ

التورية في كلمة " جزار " إذ ذكر المعنى القريب وهو " اللحم " وأراد " لقب الهجو".

ويواري ناصر الدين بن النقيب بقوله : (2)

مَنَّعَ الظَّاهِرَ الحَشِيشَ مَعَ الخَمْرِ فَوَلَّى إبْلِيسُ مِنْ مِصرِ يَسْعَى
قَالَ : مَالِي وَلِلْمَقَامِ بِأَرْضِ لَمْ أُمَّتَّعَ فِيهَا بِمَاءٍ وَمَرَعَى
فالتورية في " ماء ومرعى " حيث جاء بمعناها القريب المعروف ، وأراد الخمر

والحشيش .

(ب) التوجيه :

وهو كالتورية ، حيث يحتمل الكلام وجهين من المعنى ، ولكنه يكون في الأعلام
والسور القرآنية وقواعد العلوم والمصطلحات ، وقواعد الفقه ، والحديث والعروض وعلم
النجوم والهندسة وغيرها . (3)

ومن ذلك قول الجزار : (4)

إِذَا مَا قَرَأَتْ إِذَا زُلْزَلَتْ خَشِيتُ بَأْنَ تَقْرَأُ الوَاقِعَةَ
حيث يتحدث في هذا البيت عن بيته المتهاولي ويوظف أسماء السور القرآنية لبيان
مدى سوء حاله ، فيوجه بأسماء سورتين هما " الزلزلة " و " الواقعة " ، وهذه الأسماء لها
معنى قريب ، ومعنى بعيد ، والتوجيه بطبيعة الحال يُقصد به البعيد .

(1) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 102/1.

(2) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 116-115/1.

(3) ينظر : سراحنة ، سارة ، أبو بكر الدوماميني شاعراً وناقداً ، رسالة ماجستير ، 15.

(4) الحموي ، ابن حجة ، خزنة الأدب ، 251.

ونرى التوجيه بأسماء السور في قول الجزار في سخريته من رجلٍ أسود تزِين

بملايس مُزخرفة حيث يقول فيه : (1)

غَيْرُ خَافٍ عَنكَ الَّذِي نَالَهُ الْأَسْوَدُ بِالْأَمْسِ مِنْ نَدَى السُّلْطَانِ
وَتَمَشَّيْهِ بِالْعِمَامَةِ وَالثُّوبِ وَمَنْدِيلِ الْكُفِّ وَالطَّيْلِيسَانِ
قُلْتُ : إِذَا فَصَّلْتَ عَلَيْهِ أَرَى الزَّخْرَفَ يُتَلَّى بِالنَّصِّ فَوْقَ الدَّخَانِ
فقد وجه بأسماء السور الآتية : " فَصَّلْتَ ، وَالزَّخْرَفَ ، وَالدَّخَانِ " أتياً بمعناها القريب

مع أنه يريد معناها البعيد للزيادة من سخريته من مهجوه .

ومن التوجيه بقواعد العلوم والنحو و العروض ، ما قاله ابن الوردي : (2)

عَزَلَوْكَ لَمَّا قُلْتَ مَا أَعْطَى وَوَلَّوْا مَنْ بَدَّلَ
أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ "مَا" حَرْفٌ يَكْفُ عَنِ الْعَمَلِ
حيث وجّه بالحرف " ما " الكاف عن العمل وهو المعنى القريب ، وأراد المعنى البعيد

وهو الامتناع عن الإعطاء .

ومن ذلك ما قاله الخياط في السخرية من شعر الجزار ، بقوله : (3)

أَبَا الْحَسِينِ تَأْدَبَ مَا الْفَخْرَ بِالشَّعْرِ فُخْرُ
وَمَا تَبَالَّتْ مِنْهُ بِقَطْرَةٍ وَهُوَ بَخْرُ
والتوجيه في كلمة " بحر " .

ومنها قول الوراق : (4)

قَالَتْ : جَمَعْتَ لِقَاقَةَ كَسَلَا فَانْهَضْ وَقُمْ وَاذْأَبْ لِيَهْمُ الْعَائِلَه
فَأَجَبْتُ هَلْ تُدْرِينِ لِي سَبَبًا فَقَا لَتْ لَا وَلَا وَتَدَأْ وَهَذِي الْفَاصِلَه

فالسبب والوتد والفاصلة من مصطلحات علم العروض .

(1) الصفدي ، نصره الثائر على المثل السائر ، 327 .

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 149 .

(3) الصفدي ، نصره الثائر على المثل السائر ، 331 .

(4) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 145/1 .

وقد وجّه الشعراء بأسماء الأعلام ، ومنهم علماء اللغة والعروض ومن ذلك قول

الجزّار: (1)

إِنَّ فَصْلَ الشّتاءِ مُنْذُ نَحَا جَسْمِي أَبَدَتِ بِيَأْتِهِ الْأَعْضَاءُ
فِيهِ عَظْمِي الْمَبْرَدُ إِذْ عَنَّ الْكَسَائِي واحتمى الفراءُ

فقد وجه بأسماء علماء هم " المبرد والكسائي والفراء " وأراد من هذه الأسماء معناها

البعيد .

ومن التوجيه بأسماء الأنهار ما قاله ابن الوردي في هجاء مدينة شيزر بسوريا حيث

قال : (2)

قِيلَ لِي : شِيزْرُ نَارٌ وبها العاصي مخأذُ
قَلْتُ : لَا أَمَكْتُ فِيهَا أَنَا مِنْ حَزْبِ مُحَمَّدٍ

حيث وجّه بكلمة " العاصي " فأتى بمعناها القريب وهو اسم نهر يمر من سوريا ،

وأراد المعنى البعيد وهو العاصي لأوامر الله سبحانه وتعالى .

ج) الاقتباس :

الاقتباس مظهر من مظاهر التأثر بالتراث الأدبي (3) " سواء أكان الاقتباس من القرآن

الكريم أم الأحاديث الشريفة أم كلام العرب ، وقد برز الاقتباس من القرآن في الإشارة إلى

معنى آية قرآنية ، أو إلى قصة من قصص القرآن ، أو باستخدام ألفاظه " .

ومن التأثر بالقرآن الكريم واقتباس آية من آياته ما قاله الشاعر ابن الوردي : (4)

(1)الصفدي ، نصره التأثر على المثل السائر ، 329.

(2) ابن الوردي ، ديوانه ، 335.

(3) ينظر : الصايغ ، هنرييت ، اتجاهات الشعر العربي ، رسالة دكتوراة ، 419.

(4) ابن الوردي ، ديوانه ، 284.

أحلّ الضيوفَ على سطحه وفرَّجهم في نجوم السما
وقطَّعَ بالجوع أكبادهم "وإنَّ يستغيثوا يغاثوا بما"

فهو يقتبس من قوله تعالى : " ﴿قَالَ يَا قِطْبَةُ اللَّهِ أَفَتَأْتِيكَ الْسَّمَا بِكَمْثِلِهَا وَاللَّيْلُ بِكَمْثِلِهَا﴾ " (1).

(2) ومن ذلك قول ابن الأعمى في السخرية من حمامٍ حارٍ و وصفه بنار جهنم بقوله :

قُلْتُ لَمَّا رَأَيْتَهُ يَنْظُرِي رَبَّنَا اصْرَفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

حيث يقتبس من قوله تعالى : " ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ " (3)

(4) وكذلك وصف الحلي لحمام حيث يقول :

إِنَّ حَمَامَكَ قَدْ ضَمَّ مَتَّ حَمِيمًا وَحَمَامًا
فَهِيَ مِثْلُ النَّارِ سَاعَتَ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا

(1) سورة الكهف ، آية 29.

(2) الحنبلي ، ابن عماد ، شذرات الذهب ، 7/736.

(3) سورة الفرقان ، آية 65.

(4) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 527.

حيث يقتبس من قوله تعالى : " ﴿لَمَّا دَنَا بِوَالِدَيْهَا فَاهْتَأَىٰ بِرُجْحٍ مِّنْهُمَا فَمَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِمَا فَفَسَدَ عَلَيْهِمَا السَّمْعُ فَكَانَا بِأَعْيُنِنَا فَنَنصِتُ إِلَيْهِمَا﴾ " (1) .

وقد يكون الاقتباس بالإشارة إلى معجزات الرّسل ، كما فعل صفي الدين الحلبي الذي

أشار إلى معجزة سيدنا عيسى **U** المتمثلة بإحياء الموتى ، ليجعلها الضدّ في مهجوه ، حيث يقول : (2)

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيلة
هي الضد من أفعال عيسى بن
مريم
ثميت لنا الأحياء من غير علة
وتُضني وتُغني باليدين وبالقلم
أو حتى الإشارة إلى ذكر معجزته **U** وهي ولادته من أم بغير أب ، ويوظفها

للسخرية من مهجوه اللقيط ، حيث يقول : (3)

سُميت عيسى ولم تظفر بمُعجزة
ولا أتيت بشئ من فضائله
ولم تُشابهه في علم ولا حسب
إلا بأنك من أم بغير أب

(1) سورة الفرقان ، آية 66.

(2) الحلبي ، صفي الدين ، **ديوانه** ، 531.

(3) نفسه ، 530.

د) التّضمين :

وهو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسم والإتيان به في آخر الشعر أو أوسطه (1)
أو إيداع الشاعر في شعره بعض ما يستملحه من شعر غيره ، سواء كان ذلك في بيت كامل
أو نصفه ، أو ربعه ، بعد التمهيد له بروابط متلائمة تجعله منسجماً مع ما قبله وما بعده . (2)

وقد أكثر الشعراء في العصر المملوكي من التّضمين في أشعارهم ومن ذلك في شعر

السخرية ما نراه عند صفي الدين الحلبي الذي يسخر من طبيب بقوله : (3)

فَمَا أَنْتَ إِلَّا خَبْطُ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ ثَمْتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيُهْرَمُ

حيث ضمّن من بيت زهير بن أبي سلمى في قوله : (4)

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ ثَمْتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيُهْرَمُ
تُصِيبُ

ومن ذلك ما قاله ابن نباتة في الحديث عن الشذوذ حيث يقول : (5)

أَقُولُ لِمَعَشْرِ جَلَدُوا وَلَا طُؤَا وَبِأَثْوَا عَاكْفِينَ عَلَى الْمَلَا ح
لَأَنْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَا ح

حيث ضمن بيت جرير الذي قاله في المدح وهو : (6)

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَا ح

(1) ينظر : ابن رشيق ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، 720/2 و ينظر : ابن منقذ ، أسامة ، الديع في نقد الشعر ، 249.

(2) ينظر : الغباري ، عوض ، دراسات في أدب مصر الإسلامية ، 177.

(3) الحلبي ، صفي الدين ، ديوانه ، 531.

(4) زهير بن أبي سلمى ، ديوانه ، 70.

(5) ابن نباتة ، ديوانه ، 20.

(6) جرير ، ديوانه ، 10.

ولكنه في تضمينه يصرف البيت عن معناه الأصلي وهو المدح ، ليلائم معناه الجديد أو غرضه الجديد وهو السخرية ، وصرف البيت عن معناه الأصلي إلى معنى جديد و وضعه في غرض جديد غير الذي وضع من أجله هو أحسن التّضمين برأي ابن حجة الحموي . (1)

ثالثاً : الصّورة الشعريّة :

تعدّ الصورة الشعرية جوهر فن الشعر عامة ، إذ لا بدّ لأي عمل أدبي من صورٍ فنية تشعّ فيه الحيوية . (2)

والأديب الموفق هو الذي يعرض علينا الصّور الأدبية وكأنّها حقيقة ملموسة ، وهو حين يعرضها لا يعرضها صامتة بل مفسّرة مُجسّمة على أن ندرك أسرارها فيشملنا الإعجاب بها . (3)

ولا شكّ أن الصورة تبرز المعنى وتقربه إلى الأذهان ، لذلك لا بدّ أن تكون قريبة من الأذهان أيضاً . (4)

ولكي تكون الصور الشعرية واضحة جميلة ، لا بد لها أن تكون صوراً ذات علاقة ليس ببعضها فقط ، وإنّما بسائر مكونات القصيدة . (5)

(1) خزانة الأدب ، 4/19-21.

(2) ينظر : ضيف ، شوقي ، في النقد الأدبي ، 162.

(3) ينظر : الشايب ، أحمد ، أصول النقد الأدبي ، 218.

(4) نظر : ضيف ، شوقي ، في النقد الأدبي ، 162.

(5) ينظر : عبد الله ، محمد حسن ، الصورة والبناء الشعري ، 19.

ومن الجدير ذكره أن باستطاعة الشاعر محاكاة الواقع الذي يعيشه بالأفـاظ ، مثله مثل الفنان الذي يصوّر واقعه من خلال قدرته على الرّسم ، فكلاهما يُحاكي الواقع ، ولكن كلُّ يعتمد على قدرته ومقدار الأحاسيس والمشاعر الكامنة في عالمه الداخلي (1) وهذا ما يراه السعيد الورقي أيضاً حيث يقول : إن الصورة تعبير عن الحالة النفسية التي يُعانيها الشاعر تجاه موقف معين من مواقفه مع الحياة (2) وقد جاءت الصور الشعرية الساخرة على نوعين ، مرتبطين بانفعالات الشاعر وحالاته النفسية ، وهذان النوعان هما :

الصور المفردة والجزئية :

ومن الوسائل البنائية للصور المفردة تبادل المدركات ، وفيها يكون اعتماد الشاعر على أساليب التصوير المألوفة ، حيث يعتمد على تجسيم الصفات المحسوسة . (3) ومن الأمثلة على ذلك قول الجزّار : (4)

لبستُ بيتي وقد زرت أبوابي عليّ حتى غسلتُ اليوم أثوابي
فالتجسيم في قوله " لبست بيتي وزررت أبوابي " .

ومن أساليب هذا التصوير أيضاً التّشخيص ، ومثاله في قول الوراق : (5)

هذا وجُوختي الزّرقاء تحسبها من نسج داود في سردٍ وإثقان
قلبتُها فعدت إذ ذاك قائلة : سبحان ربّي بلى قلبي وأبلاني
إنّ النفاق لشيءٌ أَسْتُ أعرفه ، فكيف يُطلبُ مني اليوم وجهان

(1) ينظر : أبو شريفة ، عبد القادر ، مدخل إلى تحليل النص الأدبي ، 59.

(2) ينظر : لغة الشعر العربي الحديث ، 82.

(3) ينظر : عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 254.

(4) الكتبي ، ابن شاکر ، فوات الوفيات ، 292/4.

(5) الصّفي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 145/1.

فالشاعر جعل الحياة تدبُّ في جوفه ، وأجرى معها حواراً لطيفاً أنطقها من خلاله بالحكمة ليصل إلى أنها بالية (1).

الصّور المركّبة :

وهي عبارة عن صور جزئية متألّفة تتداخل في نسيج متكامل يقوم على البناء الدرامي، متمثلاً في الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي وكذلك في الأسلوب القصصي ، ومن خلاله يقدم الشاعر عواطفه وأفكاره التي تعدّر تقديمها عبر صور جزئية . (2)

ومن الأمثلة على ذلك قول الجزّار : (3)

قَالُوا وَقَدْ ضَاعَتْ جَمِيعُ مَصَالِحِي لَهُمُومٌ نَفْسٍ لَيْتَ لَا حُمْلَتْهَا
قَدْ كَانَ عِنْدَكَ يَا فُلَانُ صَرِيمَةٌ فَأَجَبْتُهُمْ بَعْتُ الْحِمَارَ وَبَعْتُهَا

أما بالنسبة لأنماط الصورة الشعرية فإنّها لا تنحصر في النمط البصري ، بل هناك أنماط حسية متعددة يمكن أن تتشكل من خلالها الصورة الشعرية ، فهناك النمط البصري والسمعي ، والذوقي ، والشّمّي ، واللمسي ، والعضوي ، والحركي " .

(1) ينظر : محمد ، محمود سالم ، أدب الصّناع وأرياب الحرف ، 250 .

(2) ينظر : عيسى ، عبد الخالق ، السخرية في الشعر في العصر العباسي ، رسالة دكتوراة ، 254-255 .

(3) الصفدي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 264/1 .

وفيما يلي بيان للصور الحسية :

1- الصورة البصرية :

ترتد هذه الصورة إلى حاسة البصر ، وتعدُّ انعكاساً لما رأى الشاعر أو شاهد (1)

ومثالها قول ابن دانيال : (2)

وَلَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَاءِ شَيْخاً وَهُوَ جَاثٍ فِي الْجَبِّ كَالْعِيَارِ
شَيْخٌ سَوْءٍ كَالْتَلَجِ ذُقْنَا وَلَكِنْ وَجْهُهُ فِي سَوَادِهِ كَالْقَارِ

حيث يعكس الشاعر من خلال هذه الأبيات صورته ومنظره الذي تراءى له في البئر،

ووصفاً شكله حيث وجهه أسود وذقنه بيضاء.

ومثال على الصورة البصرية أيضاً قول الجزار : (3)

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةَ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورَتَهَا فِي مَا جَسَرْتُ تَبَصَّرَهَا الْجَنُّ
الذَّجِي وَشَعْرَهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطْنٌ
كَأَنَّهَا فِي فَرَشِهَا رَمَّةً

نرى من خلال الأبيات السابقة كيف فصل الشاعر صورة زوجة أبيه ، ناسجاً من

مظهرها خيوط مشهد مسرحي ساخر (4) وقد استعان بالفاظٍ ساخرة لبيان مدى قبحها مثل رمّة،

وشعرها قطن .

ومن الصور التي تتعلق بالصورة البصرية نجد الصورة اللونية التي ترتدُّ إلى حاسة

البصر .

(1) ينظر ، الشناوي ، علي الغريب ، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي ، 134.

(2) الصفدي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 180.

(3) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 292/4.

(4) ينظر : الأيوبي ، ياسين ، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، 185.

ومن خلال دراستي لشعر السخرية وجدت أن اللون الأصفر نصيبٌ فيه ، حيث قام الشعراء بتصوير ألوان بعض الأشياء التي كانت محطَّ سخريتهم بهذا اللون ، ومن هذا قول الجزّار في خلّعه التي يسخر منها : (1)

لي من الشَّمْسِ خِلْعَةٌ صَفْرَاءُ لا أَبَالِي إِذَا أَتَانِي الشِّتَاءُ

وقد جعل ابن دانيال لون مهجوه أصفر بقوله : (2)

أَلَا بَلَّغَ الْمُصْفَرَّ عَنِّي وَإِنْ يَكُنْ أَحْسَنَ الْوَرَى قَدْرًا لَدَيَّ وَأَحْقَرًا

وينفي ابن دانيال عن محبوبه هذا الاصفرار بقوله : (3)

حَبِّي مَا عَابَهُ أَصْفَرًا كَلًّا وَلَا شَانَهُ انْسِطَالًا

وربما كان دافع ما دفع الشعراء لرسم هذا اللون في صورهم السّاخرة هو ما يحمله من دلالات سلبية مثل المرض والخبث في بعض الأحيان ، فالشعراء يحسّون بالألوان في وجدانهم ويترجمونها على شكل صورٍ وكلمات .

أما اللون الأسود فكان له نصيب في شعر السخرية كذلك حيث سخر الشعراء من السّود ، ونجد مثلاً على ذلك في قول البهاء زهير : (4)

وأَسْوَدَ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ خُصْلَةٌ لَهُ زَفْرَةٌ مِنْ شَرِّهِ وَشَوَاطِ

وقوله : (5)

وَأَسْوَدُ شَيْخٍ فِي الثَّمَانِينَ سِنَّهُ غَدَا وَجْهُهُ مِنْ أَبْيَضِ الشَّيْبِ أَبْلَقَا

(1) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، 309/1 .

(2) الصّفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 246 .

(3) نفسه ، 228 .

(4) البهاء ، زهير ، ديوانه ، 191 .

(5) نفسه ، 235 .

وفي البيتين نرى كيف أن الشاعر قد جعل هذا اللون في الصدارة ، حيث ابتدأ أبياته
بذكر هذه الصفة في مهجوه لمعرفته أنها بهذه الطريقة ستكون ألصق في أذهاننا ، وبالتالي
سيكون الربط قوياً بين السخرية والهزاء وبين سواد مهجوه .

ويصف الجزار جسده بالمزرق لشدة البرد ويتخيله سنجاباً بقوله : (1)

كَلَّمَا ازْرَقَّ لَوْنُ جِسْمِي مِنْ الـ **بِرْدِ تَخَيَّلْتُ أَنَّهُ سِنْجَابُ**

وقد يعمد الشاعر إلى ذكر أكثر من لون في بيته ، وهذا ما فعله الشاب الظريف في

حديثه عن الحشيشة وتأثيرها على شاربها ، حيث يقول الشاب الظريف : (2)

مَا لِلْحَشِيشَةِ فَضْلٌ عِنْدَ أَكْلِهَا **لَكِنَّهُ غَيْرُ مَصْرُوفٍ إِلَى رَشْدِهِ**
صَفْرَاءُ فِي وَجْهِهِ خَضْرَاءُ فِي **حَمْرَاءُ فِي عَيْنِهِ سَوْدَاءُ فِي كَبِدِهِ**
فَمِثْلُهُ

وإذا كان الشاب الظريف قد عمد إلى ذكر الألوان بأسمائها ، فإن ابن دانيال اختصر

الأمر بوصف ثوبه بريش الهدهد الذي يحتوي على كل الألوان ، يقول : (3)

هَذَا وَلِي ثَوْبٌ تَرَاهُ مَرْقَعاً **مِنْ كُلِّ لَوْنٍ مِثْلَ رِيْشِ الْهُدْهِدِ**
2- الصَّوْرَةُ السَّمْعِيَّةُ :

وهي من الصور الحسية التي ترتد إلى حاسة السمع ، حيث تكون انعكاساً لما سبقه

الشاعر فأثر به ، سواء كان هذا التأثير سلبياً أم إيجابياً ، ومن خلال هذا التأثير والانفعال يقوم

بترجمة الصوت إلى صور حسية .

(1) ابن كثير ، **البداية والنهاية** ، 293/13 .

(2) الشاب الظريف ، **ديوانه** ، 144-145 .

(3) حمادة ، إبراهيم ، **خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال** ، 167 .

ونلمح أصداء هذه الصورة في الشعر الساخر الذي نُظِمَ في المغنين أو العازفين

المنكرة أصواتهم وألحانهم ، ومن ذلك قول صفي الدين الحلي في مغنٍ صوته قبيح : (1)

عَنِّي بِصَوْتٍ مِثْلِ سَوَاطِ عَذَابٍ وَبَدَا بِوَجْهِهِ مِثْلَ ظَهْرِ غُرَابٍ

هذه هي صورة المغني التي استقرت في ذهن الشاعر من خلال حسّه الفني وأذنه

الموسيقية التي لم تألف هذا الصوت فصورته صورةً انتقل فيها الشاعر من الإحساس السمعي

إلى الجسدي حيث جعل الصوت سوط عذاب .

أما محمد بن علي الواسطي فيصور لنا عزف عوادٍ وزامرٍ هَذَا سَمِعَهُ وَأَزْعَاهُ فَقَالَ

فيهما : (2)

شَبَّهَتْ ذَا الْعَوَادِ وَالزَّامِرِ ضَاقَتْ عَلَيْنَا بِهِمَا الْمَنَاهِجُ
إِذْ أَرَبِدُ يَنْفُخُ وَهُوَ خَارِجٌ
بِعَقْرِبٍ يَضْرِبُ وَهُوَ سَاكِنٌ

3- الصّورة الشّمّية :

وهي صورة تُدرَك عن طريق حاسة الشم ، ومن خلالها ندرك الفوارق بين الروائح ،

وقد ركّز شعراء السُّخرية على الروائح الكريهة وجعلوها في بعض الأحيان قوام سخريتهم .

ونلمح هذه الصورة في قول الجزّار : (3)

أَذَابَتْ كَلِي الشَّيْخِ تَلْكَ الْعَجُوزُ وَأَرْدَتْهُ أَنْفَاسُهَا الْمُرْدِيَّةُ

(1) الحلي ، صفي الدين ، **ديوانه** ، 523.

(2) العسقلاني ، ابن حجر ، **الدرر الكامنة** ، 54/4.

(3) الكتبي ، ابن شاعر ، **فوات الوفيات** ، 292/4.

حيث يجعل اللبنة الأساسية في بناء سخريته من رائحة أنفاس زوجة أبيه القبيحة التي كانت سلاحاً قتلت فيه زوجها .

ومنها ما نراه في سخرية ابن دانيال من رجلٍ بخيلٍ بقوله : (1)

تَبَاخَلْتِ حَتَّى صِرْتِ أَصْفَرَ مُنْتَنًا فَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُلْقَبَ بِالْخَرَا
وله أيضاً : (2)

إِذَا مَا ابْتَدَانِي بِالْحَدِيثِ حَسْبُهُ تَسَوَّكَ مِنْ فُرْطِ النَّتُونَةِ بِالْخَرَا

يعطينا الشاعر في هذا البيت صورة شمّية علقت في ذهنه ولشدة ما فيها من سخرية وتفصيل للرائحة نستشعر أنها توغّلت في حاسة شمّنا وكأننا نقف مع الشاعر نشتم ما يشم ونشعر ما يشعر به .

4- الصّورة الحركية :

وتتمثل فيما يكوّنه الشاعر من وصفٍ للحركات وإخراجها في لوحة فنيّة متعددة الأبعاد ، نشعر من خلالها بالنبض والحيوية والحياة في هذه الصور وكأننا نعيشها .
وقد استفاد الشعراء من هذه الصّور وسخّروها في سبيل توضيح موضع السخرية التي هدفوا إليها .

ومن الأمثلة عليها ما قاله الحلي في وصف أرض الغور حيث أتى بأكثر من صورة

حركية ونقلها إلينا في صورة ساخرة بقوله : (3)

لَا جَادَ هَطَالُ السَّحَابِ بِقَعَةٍ بِالْغُورِ أَضْحَتْ وَهِيَ شَرُّ بَقَاعِهِ
أَرْضٌ تَضَاعَفَ حَرُّهَا وَيَعُوضُهَا فِي مَرَجِهَا لَمَّا حَلَّتْ بِقَاعِهِ
وَخَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحَ عَرْدًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ

(1) الصفي ، المختار من شعر ابن دانيال ، 246 .

(2) نفسه ، 175 .

(3) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 528 .

ونرى هذه الصورة الحركية في قول ابن الوردي : (1)

حَمَامُكُمْ قِيْمُهُ شَاطِرُ هَرَبْتُ مِنْهُ وَأَنَا صَارِخُ
قَدْ سَلَخْتُ جِسْمِي أَظْفَارُهُ يَا قَوْمُ هَذَا الْأَسْوَدُ السَّالِخُ

مشهدٌ وليست مجرد كلماتٍ في هذين البيتين الشعريين ، صور حركية نابضة بالحياة ،

حيث صور لنا الشاعر مشهد هروبه من الحمام في حالة ذعرٍ صارخاً من هذا القيم على الحمام الذي سلخت أظفاره جسم الشاعر .

وخير مثال على الصور الحركية قول الجزار في هجاء نجيل : (2)

طَالَمَا كُنْتُ قَبْلَهَا تَحْفَظُ الْخُبْ زَ وَلَكِنْ بِالْبَخْلِ فِي الصَّنَدُوقِ
لَيْتَ شَعْرِي مَاذَا تَقُولُ إِذَا مَا رُمْتَ شَتْمِي ، قُلْ لِي : بِأَيِّ طَرِيقِ
عَلِمَ اللَّهُ مَا مَضِيَتْ رَسُولاً قَطُّ مِنْ عِنْدِ ابْنَتِي لِعَشِيقِي
لَا وَلَا جُنْتُ بِالرِّجَالِ إِلَى بَيْتِي وَكَاسَرْتَ عَنْهُمْ فِي السُّوقِ

وكأننا أمام مشهد مسرحي يتألف من عدة حلقات ، في الحلقة الأولى يصور لنا

الشاعر حفظ مهجوه للخبز في الصندوق ، فنتراءى أمامنا صورة هذا البخيل الخائف على أن يُنال خيزه ، فيبادر إلى حفظه وكأنه كنز ثمين .

وفي الحلقة الثانية يرسم لنا مشهداً تمثيلاً مُتمثلاً في سعي مهجوه بين أبنته وعشيقتها

والمضي رسولاً بينهما .

أما في الحلقة الثالثة فيصور لنا الشاعر شذوذ مهجوه الذي يأتي بالرجال إلى بيته .

سلسلة حلقات مكتملة في هجاء هذا البخيل والسخرية منه بتوظيف الصور الحركية

التي خلقت لنا هذه المسرحية الساخرة .

5- الصورة الإيحائية :

(1) ابن الوردي ، ديوانه ، 309 .

(2) الكتبي ، ابن شاعر ، فوات الوفيات ، 281/4 .

وهي تعبيرٌ عن المطلق بالمحدد ، حيث تشير إلى المعاني المجردة فتجسّمها (1) وقد أولع شعراء السخرية بتجسيم وتشخيص المحسوسات المادية في سبيل تدعيم سخريتهم ومن ذلك قول الوراق : (2)

هذا وجُوختي الزرقاء تحسبها من نسج داود في سردٍ وإثقان
قلبتُها فعدت إذ ذاك قائلةً : سبحان ربّي بلى قلبي وأبلاني

رسم لنا الشاعر في هذين البيتين صورة لجوخته التي جعلها من البشر تشاركه همومه وفقره ، فبنى معها حواراً لطيفاً جعلها من خلاله تبين لنا مدى فقر وعوز صاحبها .

أما صفي الدين الحلي فيبني حواراً مع رغيف مهجوه البخل ، ومن خلال انطاقه له يبين لنا مدى بخل صاحبه ، يقول : (3)

لو تراني من فوق طودٍ من الجو ع أناجي رغيف نجل سينان
كلما قمتُ قائلاً : أرني وج هك نادى وعزتي لن تراني

ويجري البوصيري حواراً مع بغلة لشيخ ، تشكو فيه من تباريح بخل صاحبها ، وهو حوار لطيف ظريف ، حيث يقول : (4)

قلتُ : ما تكرهين فيه؟ فقالت : أي بخل منه وأي قناره
أنا في البيتِ أشتهي كفاً تبين ومن الفرطِ أشتهي نُواره

من خلال ما سبق نرى كيف جاء الشعراء بمعانيهم بطريقة لطيفة من خلال تجسيم المواد وغيرها وتصويرها بصور إيحائية .

(1) ينظر : عساف ، ياسين ، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس ، 118 .

(2) الصفي ، الغيث المسجّم في شرح لامية العجم ، 265/1 .

(3) الحلي ، صفي الدين ، ديوانه ، 536 .

(4) البوصيري ، ديوانه ، 99 .

الخاتمة :

الحمد لله الذي زينَ البشر بنعمة العقل ، ومَنَّ عليهم بالعتاء ، وكان خيرَ مُعينٍ لهم على قضاءِ أمورهم ، وبعد ،

فقد تمَّ بحمد الله إنهاء هذه الدراسة وفحواها السَّخرية في الشعر في العصر المملوكي الأول ، وأهمّ النتائج التي تمَّ التَّوصل إليها في هذه الدراسة ما يلي :

- ارتبطت السَّخرية في العصر المملوكي بالمجتمع ارتباطاً قوياً ، حيث كان الشعراء يستمدون صورهم السَّاخرة من واقع مجتمعهم ومن مجريات أحداثه ، مضيفين إليه الكثير من روحهم الفكهة الضاحكة .
- الأسباب التي دفعت الشعراء إلى السَّخرية كثيرة ، منها ما جاء في سبيل التلهي والإضحاك فقط ، ومنها ما هو أهم وهو المدفوع من البيئة الاجتماعية والسياسية ، ومنها ما كان لأغراضٍ دينية عقائدية .
- كانت السَّخرية سلاح كثيرٍ من الشعراء في مقاومة الظلم والجور ، لذلك فإنها تعدُّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشعبية والتَّمرّد على الظلم .
- اتخذ الشعراء السخرية وسيلة من وسائل الشكاية ومظهراً من مظاهرها ، حيث كانوا من خلالها يصوِّرون فقرهم وضيق حالهم وجعلوا من خلالها يلفتون الأنظار إلى حالهم و أوضاعهم الاجتماعية والمادية .
- عمَد الشعراء في سخريتهم إلى المحسنات البديعية وأهمها التورية والتوجيه ، وسخروها في سبيل السَّخرية والاضحاك .

- وَظَّفَ الشعراء الموروثات وتواصلوا بالتراث في أشعارهم ، حيث كان للموروث الديني نصيبٌ كبير من حيث الاقتباس وذكر أسماء السور القرآنية أو ذكر القصص القرآني في أشعارهم والحديث عن بعض معجزات الأنبياء ، وجعلوها طريقاً إلى السخرية بإنشاء أضادٍ لها عند مهجويهم أو التورية من خلالها لبيان ما كان عند مهجويهم من نقائص ، أما الموروث الأدبي فتمثل بالتضمين ، أو التوجيه بأعلام اللغة وعلمائها .
- الأسلوب العام لشعر السخرية كان مُتَّسماً بالسهولة والوضوح والابتعاد عن الألفاظ الغريبة النَّابية المعقَّدة .
- عمد الشعراء في سخريتهم إلى التجريح والإهانة في معظم الأحيان وإن جاءت في أحيانٍ أخرى على شكل نكاتٍ وطرائف لطيفة .

أما التوصيات التي يمكن طرحها فهي :

- (1) دراسة وتحقيق بعض المخطوطات مثل مقتطفات الجزار ومقتطفات الوراق .
- (2) تحقيق بعض الدواوين لشعراء من هذا العصر مثل ديوان شهاب الدين الغزالي وديوان إبراهيم المعمار .
- (3) دراسة موضوع السخرية في الشعر في عصور أخرى .
- (4) دراسة موضوع السخرية في النثر الأدبي .

ملحق

التراجم :

(1) الإسعدي (619 - 656 هـ)

محمد بن محمد بن عبد العزيز نور الدين الإسعدي ، شاعر ماجن ظريف ، اتصل بالملك الناصر ومدحه بقصائد سميت الناصريات ، عُمي قبل موته .

شذرات الذهب 284/5

الوافي بالوفيات 188/1

معجم المؤلفين 234/11

فوات الوفيات 271/3

(2) ابن الأعمى (- 692 هـ)

علي بن محمد بن المبارك ، الأديب كمال الدين بن الأعمى ، كان شيخاً مقرباً من بقايا الدولة الناصرية ، والده ظهير الدين الضرير النحوي خطيب القدس ، توفي سنة (692 هـ) .

شذرات الذهب 421/5

الوافي بالوفيات 129/22

الأعلام 334/4

(3) البهاء زهير (581-656 هـ)

زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي ، بهاء الدين : شاعر رقيق الشعر ، كان من الكتاب ، ولد بمكة ، توفي بمصر ، له ديوان شعر مطبوع .

شذرات الذهب 278-277/5

البداية والنهاية 79-78/13

النجوم الزاهرة 63-62/7

(4) البوصيري (608-696 هـ)

محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي البوصيري ، المصري : شاعر حسن الديباجة

مليح المعاني ، له ديوان شعر مطبوع .

الأعلام 139/6

الوافي بالوفيات 139/6

فوات الوفيات 205/2

(5) الجزّار (ت - 679هـ)

يحيى بن عبد العظيم الجزّار : شاعر ظريف مصري ، عمل في الجزارة عندما رأى

كساد سوق الأدب .

شذرات الذهب 364/5

النجوم الزاهرة 345/7

المغرب 296/1 القسم الخاص بمصر

ذيل مرآة الزمان 61/4

(6) الحمّامي (- 712هـ)

نصير الدين بن أحمد بن علي المناوي الحمّامي ، من شعراء مصر ، كان يستجدي

بالشعر ، ولما كسد سوقه صار يكتري الحمامات ، وكان على صلة بالوراق والكخّال ولهم

طرف وحكايات وأشعار مُتبادلة .

فوات الوفيات 205/4

الدرر الكامنة 166/5

(7) ابن دقيق العيد. (625-702هـ)

هو الشيخ تقي الدين، محمد بن علي بن وهب بن مطيع الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو الفتح بن دقيق العيد المصري، أحد الأعلام وقاضي القضاة.

الوافي بالوفيات 193/4
فوات الوفيات 442/3
الأعلام 283/6

(8) سيف الدين بن المشد (- 656هـ)

علي بن عمر بن قزل التركماني ، شاعر من أمراء التركمان ، تقلّب في دواوين الإنشاء ، توفي بدمشق سنة 656هـ .

فوات الوفيات 51/3
شذرات الذهب 280/5
الوافي بالوفيات 128/12
معجم المؤلفين 159/7

(9) الشاب الظريف (661-688هـ)

محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني ، شمس الدين ، المعروف بالشاب الظريف ، شاعر مترقق ، ولد بالقاهرة وتوفي فيها ، له ديوان شعر مطبوع .

البداية والنهاية 315/3
شذرات الذهب 405/5
معجم المؤلفين 53/10
بروكلمان-تاريخ الأدب العربي 56/5

(10) ابن الصائغ (708-776هـ)

محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفي النحوي ، درّس بجامعة طولون ، ولي قضاء العسكر ، كان فاضلاً حسن النثر والنظم ، له شرح الألفية والتذكرة النحوية .

الدرر الكامنة 499/3

الوافي بالوفيات 244/3

النجوم الزاهرة 138/11

شذرات الذهب 248/6

(11) صفي الدين الحلبي (677-750هـ)

عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم ، ولد في الحلة ونشأ فيها ، مدح السلطان
الناصر قلاوون ، كان شاعر عصره وأشهر شعراء زمانه ، له ديوان شعر مطبوع .

الأعلام 18-17/4

النجوم الزاهرة 238/10

معجم المؤلفين 247/5

(12) الضفدع (- 756هـ)

محمد بن يوسف الدمشقي ، شمس الدين بن الخياط ، يقال له الضفدع ، شاعر مكثّر
مجيد ، أكثر من مهاجاة ابن نباتة ومعارضته ، توفي وهو عائد من الحج بأرض معان سنة
756هـ .

النجوم الزاهرة 320/10

الدرر الكامنة 300/4

البدر الطالع 286/2

المنهل الصافي 328/3

(13) ابن الظهير الإبلي (- 677هـ)

محمد بن أحمد بن عمر مجد الدين ، شاعر أديب حنفي المذهب ، تنقل بين العراق
والشام ، له ديوان شعر ، توفي بدمشق سنة 677هـ .

شذرات الذهب 359/5

الوافي بالوفيات 123/2

معجم المؤلفين 302/8

فوات الوفيات 301/1

(14) ابن فضل الله العمري (- 799هـ)

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن المجلي بن دعجان بن خلف ، ولد بدمشق ، له شعر ونثر ، له كتاب " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " ، توفي في دمشق بالطاعون سنة 749هـ .

(15) القبراطي (726-781هـ)

إبراهيم بن عبد الله محمد الطائي : شاعر قاهري ، اتصل بابن نباته ، ذهب إلى الحجاز وجاور في مكة ، له ديوان (مطلع النيّرين) .

الدرر الكامنة 33/1 النجوم الزاهرة 196/11

معجم المؤلفين 54/1 شذرات الذهب 296/6

(16) الكحل (- 710هـ)

محمد بن دانيال الخزاعي الموصلبي شمس الدين ، هاجر لمصر وامتحن التكميل فسُمّي بالحكيم ، عمل في التمثيل (خيال الظل) شعره رقيق فيه مجون وخلاعة ، توفي سنة 710هـ .

شذرات الذهب 27/6 الوافي بالوفيات 51/3

النجوم الزاهرة 215/9 الدرر الكامنة 55/4

(17) ابن مطروح (592-649هـ)

يحيى بن عيسى بن إبراهيم جمال الدين بن مطروح ، شاعر أديب مصري ، توفي بالقاهرة ، خدم الملك الصالح أيوب ، ولي نظر الخزانة في مصر ، مات بالقاهرة ، وشعره قصائد طوال ومقطعات تدور على المدح والغزل والزهد .

ذيل مرآة الزمان 197/1

الأعلام 192/8

معجم المؤلفين 217/13

(18) المعمار (- 749هـ)

إبراهيم الحائك وقيل المعمار ، وقيل الحجار ، عامي ، إلا أنه مطبوع ، اشتهر بالأزجال والبلاليق ، توفي سنة 749هـ ، له ديوان شعر ، توفي سنة 749هـ .

المنهل الصافي 188/1

فوات الوفيات 50/1

الدرر الكامنة 50/1

الوافي بالوفيات 173/6

(19) ابن نباتة (686-765هـ)

محمد بن محمد بن الحسن الحزامي المصري ، أبو بكر جمال الدين بن نباتة ، شاعر عصره ، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب ، مولده ووفاته في القاهرة ، له قصائد طوال ومقطعات ، له ديوان شعر مطبوع .

عمر موسى باشا : كتاب ابن نباتة ، أمير شعراء المشقر

الأعلام 38/7

عمر فروخ - تاريخ الأدب العربي 800-94/3

(20) ابن النقيب (- 687هـ)

الحسن بن شاوور بن الحسن بن النقيب الكنانى ناصر الدين ، شاعر من أفاضل أهل مصر ، له ديوان (مقاطيع) وكتاب (منازل الأحباب) ، كان من رجال الجهاد المرابطين فى الثغور ، توفي 687هـ .

الأعلام 193/2

فوات الوفيات 118/1

المغرب 258/1 القسم الخاص بمصر

النجوم الزاهرة 376/7

(21) الوداعى (640-716هـ)

على بن المظفر بن إبراهيم الوداعى الدمشقى ، مقراء مُحدّث شاعر أديب ، له التذكرة الكندية وديوان شعر ، توفي بدمشق سنة 716هـ .

النجوم الزاهرة 235/9

شذرات الذهب 39/6

معجم المؤلفين 243/7

البدر الطالع 498/1

(22) الوراق (615-956هـ)

عمر بن محمد بن سراج الدين ، شاعر مصر فى عصره ، صحيح المعانى كثير التكلف ، فى شعره هزل ومجون ، توفي بالقاهرة سنة 695هـ .

شذرات الذهب 431/5

فوات الوفيات 140/3

معجم المؤلفين 309/7

النجوم الزاهرة 83/8

(23) ابن الوردي (691-749هـ)

عمر بن مظفر بن عمر أبو حفص أديب مؤرخ ، ولد في معرّة النعمان ، ولي القضاء

بمنبج ، له كتاب تاريخ ابن الوردي ، ديوانه مطبوع ، توفي بدمشق سنة 749هـ .

البدر الطالع 514/1

النجوم الزاهرة 240/10

شذرات الذهب 161/6

معجم المؤلفين 3/8

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر المخطوطة :

المعمار، إبراهيم. (- 749هـ). الديوان. إدارة المخطوطات والمكتبات الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية رقم 1118.

المصادر المطبوعة :

- القرآن الكريم .
- الإبيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد الفتح. (-850هـ). المستطرف في كل فن مستظرف. تحقيق محمد مهنا، مكتبة الإيمان، (د.ط)، المنصورة، (د.ت).
- أدونيس. زمن الشعر. دار العودة، ط(2)، بيروت، 1978م.
- الإربلي، ابن الظهير. (602-677هـ). الديوان. جمع وتحقيق ودراسة ناظم رشيد، كلية الآداب، (د.ط)، الموصل، 1988م.
- إسماعيل، عز الدين. الأدب وفنونه. مطبعة الاعتماد، (د.ط)، القاهرة، 1995م.
- ابن أبي الإصبع. (585-654هـ). تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث، (د.ط)، القاهرة، 1995م.
- أمين، أحمد. النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، ط(4)، بيروت، 1967م.
- أمين، بكري الشيخ. مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. دار العلم للملايين، ط(4)، بيروت، 1986م.

- أمين، فوزي محمد. أدب العصر المملوكي الأول. ملامح المجتمع المصري. دار المعرفة الجامعية، (د.ط)، الإسكندرية، 2003م.
- الأندلسي، علي بن سعيد. (ت 685هـ). المغرب في حلي المغرب (القسم الخاص بمصر). تحقيق محمد حسن شوقي ضيف، وسيدة كاشف، مطبعة فؤاد الأول، (د.ط)، ج1، مصر، 1953م.
- أنيس، إبراهيم، وآخرون. المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية، 1972م.
- الأيوبي، ياسين:
- * آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي. جروس برس، طرابلس، لبنان، 1995م.
- * صفي الدين الحلي. دار الكتاب اللبناني (د.ط)، بيروت، 1971م.
- باشا، عمر موسى:
- * أدب الدول المتتابعة. دار الفكر الحديث، بيروت، 1967م.
- * ابن نياتة المصري أمير شعراء المشرق. دار المعارف، ط(2)، القاهرة، 1972م.
- بدوي، أحمد أحمد. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. مطبعة النهضة، مصر، (د.ت).
- بردي، ابن تغري. جمال الدين يوسف الأتابكي. (ت 874هـ):
- * المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العاملة للكتاب، (د.ط)، مصر، 1984م.

*النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر،
1956م.

- بهاء الدين، زهير. (ت 656هـ). الديوان. تحقيق محمد طاهر الجبلأوي ومحمد أبو
الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1977م.

- البوصيري، محمد بن سعيد، (608-696هـ). الديوان، تحقيق عبد الرحمن
مصطاوي، دار المعرفة، بيروت، 2007م.

- بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. ترجمة : محمود فهمي حجازي، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، (د.ط) (د.م)، 1995م.

- جرير. الديوان. دار صادر، بيروت، 1991م.

- حجازي، أحمد توفيق. موسوعة الأمثال الفلسطينية. دار أسامة، عمان، الأردن،
2003م.

- الحسين، قسي. الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني. المؤسسة الحديثة
للكتاب، (د.ط)، طرابلس، 2006م.

- الحطيئة. الديوان. تحقيق حمدو طماس-دار المعرفة. ط(2)، بيروت، 2005م.

- الحلبي، صفي الدين أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا الطائي. (ت - 750هـ).
الديوان. شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن
أبي الأرقم، بيروت، لبنان، 1997م.

- حمادة، إبراهيم. خيال الظل وتمثيلات ابن دانيال. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، (د.ط)، مصر، 1961م.
- الحموي، ابن حجة، تقي الدين أبو بكر علي (ت 837هـ). خزانة الأدب وغاية الأرب. مكتبة لبنان، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت - 626هـ). معجم البلدان. دار صادر، (د.ط)، بيروت، 1968م.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت - 900هـ). الروض المعطار في خير الأقطار. تحقيق إحسان عباس، دار السراج، ط(3)، بيروت، 1975م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني (ت - 463هـ). العمدة في صناعة الشعر ونقده. تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م.
- الركابي، جودت. الأدب من الانحدار إلى الازدهار. دار الفكر، ط(2)، بيروت، 1996م.
- الزركلي، خير الدين. الأعلام. دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1979م.
- ابن أبي سلمى، زهير. الديوان. دار صادر، بيروت، (د.ت).
- سكاربيت، روبير. الفكاهة. ترجمة هدى جمال، دار المستقبل العربي، (د.ط)، القاهرة، 1992م.
- سلام، محمد زغلول. الأدب في العصر المملوكي. دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، 1972م.

- سليم، محمد ابراهيم. البهاء زهير، شاعر مصر في العصر الايوبي. دار الطلائع، (د.ط)، مصر، 1992م.
- سليم، محمود رزق. عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. مكتبة الآداب، ط(2)، (د.م)، 1992م.
- السمرة، محمود. في النقد الأدبي. الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1974م.
- الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن عفيف التلمساني (661-688هـ). الديوان. قدم له وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهوارى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م.
- الشايب، أحمد. أصول النقد الأدبي. مكتبة النهضة المصرية، ط(2)، مصر، 1973م.
- أبو شريفة، عبد القادر. مدخل إلى تحليل النص الأدبي. دار الفكر، عمان، الأردن، 1990م.
- الشناوي، علي غريب محمد. الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي. مكتبة الآداب، القاهرة، 2003م.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت - 1250هـ). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. دار المعارف، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (ت - 764هـ):
- * الغيث السمجم في شرح لامية العجم. دار الكتب العلمية، بيروت، 1975م.

* فض الختام عن التورية والاستخدام. دراسة وتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، القاهرة، 1979م.

* المختار من شعر ابن دانيال. تحقيق محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، (د.ط)، الموصل، 1979م.

* نصرة الثائر على المثل السائر. تحقيق محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1972م.

* الوافي بالوفيات. تحقيق مجموعة دار فراتر شتاينر بغسبادن، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، 1980م.

- ضيف، شوقي:

* تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات. مصر، دار المعارف، ط(2)، القاهرة، 1990م.

* في الشعر والفكاهة في مصر. دار المعارف (د.ط)، القاهرة، 1999م.

* في النقد الأدبي. دار المعارف، ط(7)، القاهرة، 1962م.

- طبانة، بدوي. البيان العربي. مكتبة الأنجلو المصرية، ط(3)، مصر، 1962م.

- ابن ظهيرة. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، دار الكتب المصرية، (د.ط)، القاهرة، 1969م.

- العاكوب، عيسى وآخرون. الكافي في علوم البلاغة العربية. البيان والبديع. (د.ن)، القاهرة، 1993م.

- العباسي، عبد الرحيم. معاهد التنصيص على شواهد التخليص. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، (د.ط)، القاهرة، 1947م.
- عبد الحميد، شاكر. رؤية جديدة : الفكاهة والضحك. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د.ط)، الكويت، 2003م.
- عبد الرحمن، منصور. اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري. مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ط)، القاهرة، 1977م.
- عبد الله، محمد حسن. الصورة والبناء الشعري. دار المعارف، (د.ط)، مصر، (د.ت).
- عتيق، عبد العزيز. علم المعاني. دار الآفاق العربية، القاهرة، 2006م.
- عساف، ياسين. الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م.
- العسقلاني، ابن حجر، أحمد بن علي. (ت - 852هـ). الدرر الكامنة في أعيان المئة الثانية. ضبط وتصحيح عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. (ت - 395هـ). الصناعتين - الكتابة والشعر. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب، (د.ط)، القاهرة، 1971م.

- أبو علي، نبيل خالد. البوصيري، شاهد على العصر المملوكي. مكتبة آفاق، ط(2)، غزة، 1998م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي. (ت - 1089هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار الآفاق الجديدة، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- العيني، بدر الدين محمود. (ت - 855هـ). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. حققه د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، مصر، 1978م.
- الغباري، عوض علي مرسي. دراسات في أدب مصر الإسلامية. دار الثقافة العربية، (د.ط)، القاهرة، 2003م.
- فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي. دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.
- الفقي، محمد كامل. الأدب العربي في العصر المملوكي. دار الموقف العربي، ط(3)، مصر، 1984م.
- القباني، عبد العليم. من الشعراء أصحاب الحرف. دار الكتاب العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- القشطيني، خالد. سجل الفكاهة العربية. دار الكرمل، (د.ط)، عمان، الأردن، 1993م.
- قليفة، عبده عبد العزيز. النقد الأدبي في العصر المملوكي. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م.

- الكتبي، محمد بن شاکر. (ت - 764هـ). فوات الوفیات. تحقیق محمد محی الدین عبد الحمید، مکتبة النهضة المصرية، (د.ط)، القاهرة، 1951م.
- ابن کثیر، أبو الفداء الدمشقی. (ت - 774هـ). البداية والنهاية. وثقه علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، ط(2). بیروت، 2003م.
- کحالة، عمر رضا. معجم المؤلفین. مکتبة المثنی و دار إحياء التراث العربي، ط(2)، بیروت، 2003م.
- ابن کلثوم، عمرو. الديوان، صنعه علي أبو زيد، دار سعد الدين، دمشق، 1991م.
- محمد، محمود سالم. أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري. دار الفكر، دمشق، 1993م.
- محمود، شهاب الدين أبو الثناء بن فهد الدمشقی. (ت - 725هـ). حسن التوسل إلى صناعة الترسيل. المطبعة الوهبيية، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقیق يوسف الشيخ محمد البقاعي، إشراف مکتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بیروت، لبنان، 1998م.
- المقریزي، تقي الدين أحمد بن علي. (ت - 845هـ):
* الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبع مصر، 1327هـ).
* السلوك لمعرفة دول الملوك. صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زیادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1958م.

- مندور، محمد. الأدب وفنونه. دار نهضة مصر، (د.ط)، القاهرة، 1974م.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم. (ت-711هـ). لسان العرب. دار صادر، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- ابن منقذ، أسامة (ت-584هـ). البدیع فی نقد الشعر. تحقيق أحمد أحمد بدوي وآخرون، مطبعة البابي الحلبي، (د.ط)، مصر، 1960م.
- ابن نباته المصري. (ت-768هـ). الديوان. دار إحياء التراث العربي، نشره محمد القلقيلي، بيروت.
- هدارة، مصطفى محمد. اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري. دار المعارف، ط(2)، مصر، 1969م.
- الهيب، أحمد فوزي. الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر. (ت-749هـ)
- * تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي. تحقيق، أحمد رفعت البدرأوي، دار المعرفة، بيروت، 1970م.
- * الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، 1986م.
- الورقي، السعيد. لغة الشعر العربي، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية. دار المعرفة، (د.ط)، القاهرة، 2005م.

- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد. (ت-726هـ). ذيل مرآة الزمان. دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، (د.ت).

الرسائل الجامعية :

- السراحنة، سارة حسين. أبو بكر الدماميني شاعراً وناقداً مع جمع شعره وتوثيقه ودراسته. رسالة ماجستير، جامعة الخليل، الخليل، 2007م.
- الصايغ، هنرييت. اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام. رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، القاهرة، 1980م.
- عبد الهادي، حسن محمد السراحنة. دراسة شعر شمس الدين النواجي مع تحقيق ديوانه. رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، القاهرة، 1980م.
- عيسى، عبد الخالق. السخرية في الشعر في العصر العباسي. رسالة دكتوراة، جامعة النجاح، نابلس.
- غريب، علي محمد علي. شعر ابن فضل الله العمري ، جمع وتوثيق ودراسة. رسالة ماجستير، جامعة الخليل، الخليل، 2008م.